

مجلة البيان - العدد ٢ صفر ١٤٠٧ هـ أكتوبر ١٩٨٦م

الافتتاحية

بين يدي عام هجري جديد

التحرير

ما أحوجنا ونحن نستقبل عاماً جديداً أن نعيش بقلوبنا وعقولنا ومشاعرنا وواقعنا مع رسول -صلى الله عليه وسلم- في هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وإذا كانت هذه الافتتاحية المتواضعة لا تتسع لجميع معاني الهجرة وما حوته من دروس وعبر ، فسوف نختار منها قيمة الزمن وأهميته .

لقد جاهد -صلى الله عليه وسلم- في سبيل الله حق الجهاد ، منذ أنزل الله عليه قوله تعالى : ((يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * رَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَتَيَّابِكَ فَطَهِّرْ)) [المدثر: ١-٤] ، فكان صلى الله عليه وسلم يواصل الليل مع النهار والسر مع الإعلان ، وما كان يخشى في الله لومة لائم ، ولا كان يردعه عن تبليغ الدعوة تهديد قريش ووعيدها . واستجاب له منذ بداية الدعوة صديق الأمة أبو بكر من الرجال ، ومن الصبيان علي بن أبي طالب ، ومن النساء زوجه خديجة بنت خويلد ، واستجاب لأبي بكر : عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، رضى الله عنهم جميعاً وأرضاهم .

وتعهد صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتربية والتعليم فكان يجمعهم في دار الأرقم فيحفظهم ما ينزل عليه من القرآن الكريم ، ويأمرهم بحسن الأخلاق ، ويحذرهم من الفسق والشرك والعصيان ، وكان -صلى الله عليه وسلم- قدوة لهم في جميع أقواله وأفعاله .

وكان للوقت قيمة كبرى عندهم ، فكانوا يستغلون أوقاتهم في الدعوة إلى الله وفي النزود من علم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضله ، وكانت العقيدة في نفوسهم أهم من المال والأهل والولد ، وعندما خيروا بين الوطن والقبيلة ورغد الحياة وبين خشونة العيش والغربة والتشرد اختاروا صحبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والهجرة في سبيل الله.

لقد صدق الصحابة -رضوان الله عليهم- ما عاهدوا الله عليه ، وعندما ابتلاهم الله صبروا وضربوا أروع الأمثلة في الفداء والتضحية ، وعندما نادى منادي الجهاد كانوا يتسابقون على الموت في سبيل الله ولسان حالهم يقول ((وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)) [طه: ٨٤].

وبعد ثلاثة عشر عاماً من البذل والتضحية أكرم الله جل وعلا محمداً وأصحابه -صلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم- بالنصر وجاءهم من جهة المدينة .

ثلاثة عشر عاماً كانت محسوبة بأيامها ولياليها وساعاتها !!
ثلاثة عشر عاماً لا يهنأ المسلمون فيها بلذيق الطعام والشراب ، ولا يصرفهم عن ذكر
الله حب الدنيا والتثاقل إلى الأرض .
ثلاثة عشر عاماً من العمل الجاد ، والتخطيط الدقيق ، والتربية الرائعة .
فأين نحن اليوم من سيرة الرسول وأصحابه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم؟

لقد انسلخ عام كامل من أعمارنا . . انسلخ بثوانيه ودقائقه وساعاته وأيامه .. فماذا
قدمنا فيه من أعمال صالحة ندخرها ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت
وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله
شديد؟! .!

ماذا قدمنا فيه كأفراد وكشعوب ، ليوم كألف سنة مما تعدون؟! .!
إن الجواب على هذا السؤال مخجل ومخجل جداً ، ولكن لا بد من الاعتراف
بالأمر الواقع ، فالواحد منا يخرج من بيته في الصباح الباكر ، ويمضي سحابة يومه
في عمل قلما تنتفع به الدعوة الإسلامية ، ويعود إلى بيته آخر النهار وقد أضناه
التعب فيتناول طعام الغداء مع أهله ويرتاح قليلاً ثم يمضي بقية اليوم وأول الليل في
رعاية شؤون البيت والولد ، ثم ينام ، ثم يعود في الصباح إلى عمله وهكذا .. إنها
- والحق يقال - حياة كالتي وصفها الحطيئة في هجائه للزبرقان بن بدر :
دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

لقد شغلنا أموالنا وأولادنا عن طاعة الله والجهاد في سبيله ، ونحن الذين حذرنا الله -
جل وعلا- من فتنة المال والولد قال تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ
وَأَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا
رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ
فَأَصَدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ)) [المنافقون : ٩-١١] .

وكان ابن عمر -رضي الله عنهما- يقول : «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا
أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك» رواه
البخاري .

وقال صلى الله عليه وسلم : لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم
أفناه ، وعن علمه ما فعل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم
أبلاه .

سوف يسألنا مالك يوم الدين يوم الحشر عن أعمارنا ، هل أفنيناها في الأعمال
الصالحة ، وفي الجهاد في سبيل الله ، أم أفنيناها في اللهو والتفاخر بالجاه والمال
والولد .

ويسألنا سبحانه وتعالى عن أجسامنا هل أبليناها بالصيام والقيام و غض البصر وحفظ
السان ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . أم أبليناها في تناول ما
لذ من الطعام والشراب؟! .

والسائل جلّ وعلا يعرف خفايا أمورنا ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .
قال تعالى : ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى
ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ
مَعَهُمْ أَيُّنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)) [المجادلة :
٧] .

وقد انتهت الأمم الأخرى إلى قيمة الوقت وأهميته ، فالناس في جميع بلدان العالم
كانوا يظنون أنه لن تقوم للألمان قائمة ، بعد دمار بلدهم ، وهلاك الحرث والنسل
فيه خلال الحرب العالمية الثانية .. ولكن أصحاب العقول من العلماء والحكماء
والسياسيين الألمان راحوا يعملون بهم جبارة ، ورفعوا شعار العمل ساعتين مجاناً
في كل يوم من أجل بناء بلدهم ، واستجاب الشعب لهم ، وهبوا جميعاً يعملون على
قلب رجل واحد ، وخلال زمن يسير عادت ألمانيا دولة قوية مرهوبة الجانب
وكانها لم تتعرض لدمار شامل .

فتصوروا لو عمل المسلمون ساعتين في اليوم مجاناً في سبيل الله .
لو كان عملهم في مجال الاقتصاد لكان دخل الدعوة الإسلامية لا يقل عن ألفي مليون
دولار في اليوم الواحد ، وسيكون خلال شهر واحد ستين ألف مليون دولار ، ولو
رصد مثل هذا المبلغ في سبيل الله لتغير وجه الأرض شريطة أن يصاحبه تخطيط
وصدق .

ولو كان عمل المسلمين في مجال تبليغ الدعوة لدخل الناس في دين الله أفواجا في كل
مكان من المعمورة ، وأصبح الإسلام دين البشرية كلها .

ولو كان عملهم في المجال العلمي بجميع جوانبه وفروعه ، لقاد علماء أمتنا
العالم ولانتهت أسطورة اليهود وغير اليهود .

وفضلاً عن هذا كله ، فنحن أحق من الألمان بمثل هذا العمل لأنهم يعملون من أجل
دنياهم ، ونحن نعمل من أجل دنيانا وآخرتنا .

فهل نبدأ عامنا الجديد ونحن أكثر استعداداً لعمل الخير وطاعة الله سبحانه وتعالى؟! .
وهل نتخلى عن السهرات والجلسات الفارغة وما يدور فيها من غيبة ونميمة
ومراء ونفاق؟! .

وهل نستفيد من أوقاتنا ، ونحزن على كل يوم يمضي من أعمارنا دون أن نعمل فيه
عملاً طيباً خالصاً لوجه الله؟! .

وهل نجدد العهد مع الله ، ونتأسى برسول الله وأصحابه الغر الميامين - صلى الله
على رسوله وعلى آله وصحبه وسلم - الذين عرفوا كيف يستفيدون من أوقاتهم؟! .

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ولا تجعلنا من الخاسرين الذين يؤثرون العاجل على الآجل والفاني على الباقي .

دعوة كريمة .. أجيبوا داعي الله

عثمان جمعة ضميرية

قال الله سبحانه وتعالى :
((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)) [الأنفال: ٢٤] .

ما أعظم المنّة التي امتنها الله تعالى على عباده، عندما أكمل لهم الدين، وأتم عليهم النعمة ، ورضي لهم الإسلام ديناً : ((الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)) [المائدة: ٣] .

* وما أكرم هذا الإنسان، عندما يفىء إلى الله تعالى، ويستجيب لدعوته ويبصر أمامه الطريق المستقيم ، ليقوم بدوره في هذه الحياة، ويدرك معنى وجوده فيها ! وعندئذ تتحقق له الحياة الحقيقية ، الحياة الكريمة الطيبة .

فالذين يستجيبون لله وللرسول ظاهراً باطناً هم الأحياء وإن ماتوا ، وهم الأغنياء وإن قلت ذات أيديهم ، وهم الأعرزة وإن قلّ الأهل والعشيرة .. غيرهم هم الأموات حقيقة وإن كانوا أحياء الأبدان ، يسعون بين الناس جيئةً وذهوباً ، ((أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ)) [النحل: ٢١] ، وهم الفقراء ، ولو كان الذهب النضار يملأ خزائنهم ، ويعمر جيوبهم ، وهم الذين تغشاهم الذلة ، ولو كانوا يمتون بالنسب ، ويحتمون إلى أعرق القبائل .

* ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الله سبحانه وتعالى ، ودعوة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، الذي يعاشرها ويبليغها عن ربه تبارك وتعالى، فإن كل ما دعا إليه فيه الحياة ، ومن فاته جزء من الدعوة فاته جزء ، من الحياة ، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب لله وللرسول -صلى الله عليه وسلم- (١) .

والله سبحانه وتعالى يوجّه الدعوة الكريمة للمؤمنين ، ويستجيش فيهم عاطفة الإيمان ، ويخاطبهم بهذه الصفة : صفة الإيمان ، ويذكرهم بمقتضى هذا الذي آمنوا به ، فيناديهم بصفتهم مؤمنين ليكون ذلك حاملاً لهم على المبادرة إلى إجابة الدعوة بعناية واستعداد ، وقوة وعزيمة . وهذا هو شأن المؤمن : إنه يتلقى أوامر الله ودعوته بقوة : ((يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ)) [مريم: ١٢] ، ((خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ

تَتَّقُونَ))، [الأعراف: ١٧١] فإن لهذه الدعوة أعباءها ، وإن لهذه المهمة تكاليفها :
 ((إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)) [المزمل: ٥] .

ولن يحمل هذه الدعوة ويصمد لها ويتغلب على عقبات طريقها ، ويصبر أجمل الصبر عليها ، ولن يعيش لها ويتحرك في دائرتها حركة المؤمن بها الواعي لتكاليفها ، إلا الرجال الأقوياء الأشداء ، وعندئذ تكون الأمة التي تنجب هؤلاء المؤمنين الأفاضل ، والتي تأخذ هذا الكتاب بقوة ، وتلتزم بالتكاليف .. أمة ذات رسالة سامية وهدف عال ، تكافح وتجاهد من أجلهما : ((وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)) [الحج: ٤٣] ، وتكون هي الأمة القائدة الرائدة ، التي أناط الله تعالى بها مهمة الشهادة على الناس جميعاً ، فتقيم بينهم العدل والقسط ، وتضع لهم الموازين الربانية والقيم الثابتة .. هي الأمة العدل الوسط ، كما وصفها الله سبحانه وتعالى الذي حدد لها هذه الوظيفة فقال : ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)) [البقرة: ١٤٣] .

* وهذه الدعوة ، التي يوجهها الله تعالى لعباده المؤمنين ، دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة ، وبكل معاني الحياة ولكنها ليست أي حياة ، وإنما هي الحياة الكريمة العزيزة ، الحياة الحقيقية الكاملة ، التي يتميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات ، فإن هذه المخلوقات تحيا حياة بهيمية ، يتحرك فيها المخلوق بدافع من بطنه أو فرجه ، فهو لا يعرف له غاية نبيلة يسعى إليها ، ولا رسالة يحيا من أجلها ، ويكافح في سبيلها ، فحسبه دريهمات يملأ بها جيبه ، أو لقيمات تملأ معدته الفارغة ، وثياب تكسو جسده العاري ، وليكن بعد ذلك ما يكون ، فهو لا يسعى لأكثر من هذا !!
 إنها حياة القلب والعقل ، بالعقيدة التي تعمر القلب ، فتملأ كيان الإنسان نوراً وهداية : ((أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)) [الأنعام: ١٢٢] . ((اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)) [البقرة: ٢٥٧] .

وهي العقيدة التي تهدي العقل ، وتضبط حركته وعمله ، فتحميه من التيه والضياع ، وتحفظ عليه جهده وطاقته من التبدد ، عندما ترسم له منهج الفكر السليم ، وتحدد المجال الذي يمكن أن يرتاده العقل ويستطيع أن يعمل فيه ، ثم تحجب عنه ما لا يستطيع أن يفكر فيه أو أن يدركه ، وعندئذ تتجمع الطاقة العقلية لتعمل في مجالها المحدد فتستطيع أن تحقق الكثير من الإنجازات العظيمة في نطاق السنن الربانية في الكون والحياة الاجتماعية والحضارية وفي أحداث التاريخ وأيام الله (٢) .

وإنها حياة للروح والجسد ، دون انقسام بينهما ولا صراع ، فما كان تعذيب الجسد- في شريعة الله - سبيلاً لرقى الروح وتزكيتها ، ما كانت العناية بالروح عاملاً يدفع المؤمن إلى ترك ما أحل الله للإنسان وتحريمه ، ولا حرمانه من حق الحياة الطيبة والزينة التي أخرجها الله لعباده : ((قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)) [الأعراف : ٣٢] ((وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)) [القصص : ٧٧] .

وهذا ما علمه النبي ؛ صلى الله عليه وسلم- لأصحابه وقذفه في قلوبهم وعقولهم ، فكان درساً وتعليماً لا ينسى ؛ فعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم- يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم- ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم- ، قد عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؛ قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبداً ؛ وقال الآخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ؛ وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً .

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم- فقال : «أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؛ أما والله إنني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني» (٣).

ولن تتحقق هذه الحياة إلا بوحى الله سبحانه وتعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)) [الشورى: ٥٢-٥٣] .

فقد سمى الله تعالى ما أنزل على رسوله روحاً؛ لتوقف الحياة الحقيقية عليه ، كما سمّاه، أيضاً ، نوراً ، لتوقف الهداية عليه ، فقال الله ، سبحانه وتعالى ، ((يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)) [المؤمن: ١٥١] ، كما سمّاه أيضاً شفاءً ، فقال : ((قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً)) [فصلت : ٤٤] .

وليس غريباً ، بعد هذا ، أن يجعل النبي ، صلى الله عليه وسلم- هذا الإيمان والعقيدة التي جاء بها كالمطر الذي ينزل على الأرض الهامدة فيحييها :

عن أبي موسى الأشعري ، رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم- قال : «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضاً ، فكان منها نقيةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادبٌ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعانٌ لا تمسك ماء ، ولا تثبت كلأ . فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله

به ، فعَلِمَ وعَلَّمَ. ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هُدَى الله الذي أرسلت به» (٤)

فهي إذن دعوة إلى العقيدة والإسلام والإيمان ، فقد أحياهم الله تعالى بالإسلام والإيمان بعد موتهم بالكفر .

وهي دعوة إلى الحق والقوة ، الحق الذي قامت عليه السموات والأرض ، إذ لم يخلقهما الله تعالى إلا بالحق: ((وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)) [إبراهيم: ٨٥] ، والكتاب الذي أنزله الله تعالى على خاتم أنبيائه ورسوله ، صلى الله عليه وسلم- هو الحق : ((وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ)) [فاطر: ٣١] ، وقد أنزله الله تعالى بالحق : ((نَزَّلَ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ الْقُرْآنَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)) [آل عمران: ٣] .

والشريعة التي أنزلها الله تعالى على رسوله هي حق وعدل ، أكملها الله تعالى وبثها في كافة الخلق : ((هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)) [الصف: ٩] ، وما أرسل الله تعالى رسوله ولا أنزل كتبه إلا ليقوم الناس بالحق والقسط بين الناس : ((لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)) [الحديد: ٢٥] .

* وإذا كان الحق لا بد له من قوة تحميه وتزيح العقبات من طريق حمله للناس وإبلاغه لهم ، على حد قول الفاروق عمر ، رضي الله عنه: إنه لا ينفع التكلم بحق لا نفاذ له .. فإن هذه الدعوة إلى الحياة ، هي دعوة إلى القوة والجهاد الذي أعزَّ الله تعالى به هذه الأمة بعد ذل ، وقواها من بعد ضعف ، فقد حُملت راية الجهاد في سبيل الله ، لتقرير ألوهية الله تعالى في الأرض ، لينعم البشر بدين الله ، سبحانه وتعالى فيتحرروا في كل عبودية لغير الله ، إذ هم عبيد لله تعالى وحده ، وعندئذ تكتب لهم الحرية الحقيقية ، والعزة الكاملة ، فالجهاد هو طريق العزة والكرامة للأمة ، هو طريق الحياة الحقيقية .

وحتى عندما يموت المجاهدون ويستشهدون في سبيل هذه الدعوة ، لن يكونوا عند الله تعالى إلا في عداد الأحياء ، ولو كانوا في قبورهم ، ولهم من الرزق الطيب عند الله ما لا يقاس به رزق الدنيا كلها ، فهم الذين استجابوا لله والرسول : ((وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ)) [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٢] .

ولقد كان المسلمون يعيشون هذه الحقيقة بحسبهم وشعورهم المرهف ، فالجهاد عندهم هو الحياة الحقيقية ، والأمثلة على ذلك من الواقع التاريخي للمسلمين تعزُّ على

الحصر ؛ فهذا هو الفاروق عمر ، رض الله عنه ، يرى غزو الروم بالشام ودعوة الصديق رضي الله عنه ، إلى الجهاد دعوة للحياة الحقيقية الكريمة :
فقد جمع أبو بكر ، رضي الله عنه مستشاريه فاجتمعوا لديه ، وكان مما قاله لهم : وقد أردت أن أستنفركم إلى الروم بالشام ، ليؤيد الله المسلمين ، ويجعل الله كلمته العليا ، مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الوافر ، فمن هلك هلك شهيداً ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش عاش مدافعاً عن الدين مستوجباً على الله ، عز وجل ، ثواب المجاهدين ..

فتكلم كل منهم ؛ عمر وعبد الرحمن بن عوف .. وعثمان بن عفان وطلحة والزبير وسعد وأبو عبيدة وسعيد ابن زيد والحاضرون .. واتفقوا مع أبي بكر رضي الله عنه على مبدأ فتح الشام .

وانفض الاجتماع ، وتام أبو بكر رضي الله عنه إلى الناس ، فحمد الله بما هو أهله ، ثم حثهم على الجهاد.. وسكت الناس ، فما أجابه أحدٌ هيبة لغزو الروم لما يعلمون من كثرة عددهم وشدة شوكتهم . فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا معشر المسالمين مالكم لا تجيبون خليفة رسول الله إذا دعاكم لما يحييكم؟ .. أما إنه لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لابتدرتموه ! (٦) .

وهكذا كانت كلمة ابن الخطاب تخرج من مشكاة قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)) .

* ثم هي الحياة الحقيقية في الجنة فالجنة هي دار الحيوان، هي الدار التي تفيض بالحياة الحقيقية والحيوية ، وفيها يتحدد مصير الإنسان الأبدى ، بعد أن ينتقل من هذه الحياة الدنيا ، فالدار الآخرة هي المتاع الذي ينبغي أن يحرص عليه المرء ولا يرضى به بديلاً ، ولا يبغى عنه حولاً ، ولذلك ينبغي الاستعداد والتأهب لتلك النهاية التي يصير إليها المرء ، وعندئذ تنفتح أمامه آفاق سامية ، وأمام بعيدة ، ويرتفع إلى مستوى لائق بكرامته وإيمانه :

((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)) [العنكبوت: ٦٤] .

وأما الذين يرفضون الاستجابة لله والرسول فإنهم يرفضون الحياة الكريمة اللائقة بالإنسان، فليس لهم إلا الدُّون ومصيرهم الهلاك، ومآلهم الدمار والبوار: ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ)) [إبراهيم: ٢٨-٢٩] .

وما أعظم خسارة أولئك الذين آثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية الدائمة ! وما أعظم ضلال أولئك الذين حصروا الوجود في هذا الذي تقع عليه حواسهم قريباً في الدنيا ، ويحسبون أن وجودهم محصور فيها فلا يعملون لغيرها :

خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ أُمَّةٌ يَحْسِبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ

إنما يُنقلون من دار أعما ِل إلى دار شقوة أو رشاد! * وكل ما ألمحنا إليه من معاني الحياة في هذه الآية الكريمة من الإيمان أو الحق أو الجهاد أو الجنة في الدار الآخرة.. كل هذه المعاني مرادة ومقصودة ، ولا اختلاف بينها ، وكلها عبارات عن حقيقة واحدة ، وهي : القيام بما جاء به الرسول ، صلى الله عليه وسلم- ، ظاهراً وباطناً ، وما يظهر فيها من اختلاف إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد(٧).

يقول الإمام ابن القيم، رحمه الله: (والآية تتناول هذا كله ، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد تحيي القلوب الحياة الطيبة . وكمال الحياة في الجنة والرسول داع إلى الإيمان وإلى الجنة ، فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة) (٨).

وبعد ، يا أخي المسلم :

فهل تستجيب لهذه الدعوة الكريمة التي وجَّهها إليك رب العزة، جل جلاله؛ لتظفر بهذه الحياة الكريمة التي ألمحنا إلى شيء مما تعنيه ، فتكون بسلوكك واستجابتك هذه معلماً من معالم الطريق..؟.

وإذا وجَّهت إليك الدعوة ثانية ، فهل تستجيب لها؟.

إنك لست بالخيار .. إن أردت أن تكون مؤمناً .. فإما إيمان .. أو لا إيمان .. إما استجابة .. وإما إعراض ..

ولن يكون مؤمناً ذلك الذي يُعرض عن دعوة الله ، ولا يستجيب لها ، أو يجعلها دبر أذنيه ، فإن الاستجابة لله وللرسول ، صلى الله عليه وسلم- ، هي المحكُّ الحقيقي والمظهر العملي للإيمان :

((إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)) [آل عمران : ١٦٩] .

((لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)) [النساء : ١٢٣ - ١٢٤] .

والمؤمن يستجيب لنداء الإيمان من فوره : ((رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)) [آل عمران : ١٩٢ - ١٩٣] .

ولذلك قال عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه : (إذا سمعت الله تعالى يقول . يا أيها الذين آمنوا ! فأرْعها سمعك ، فإنه إما خيرٌ تؤمر به ، وإما شرٌ تنهى عنه).

الهوامش:

١- انظر : الفوائد ، لابن القيم الجوزية : ١١٥ - ١١٦ ، طبع دار النفائس ، بيروت .

- ٢- انظر بالتفصيل: خصائص التصور الإسلامي لسيد قطب : ٥٤ - ٦٨ ، ٢٢٨ - ٢٣١ ، مذاهب فكرية معاصرة للأستاذ محمد قطب : ٥٣١ وما بعدها ، التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان ١٠٢- ١٠٧ ، دار الأرقم بالكويت .
- ٣- أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في كتاب النكاح . انظر اللؤلؤ والمرجان : ٣٢٤/١ - ٣٢٥ ، طبع المكتبة الإسلامية بتركيا .
- ٤- أخرجه البخاري في كتاب العلم ، واللفظ له ، ومسلم في كتاب الفضائل ، انظر : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، محمد فؤاد عبد الباقي : ٢٢٣/٢ ، شرح السنة للبغوي : ٢٨٧/١ - ٢٨٨ .
- ٥- انظر: منهج الإسلام في الحرب والسلام ، عثمان جمعة ضميرية ص ١١٥ وما بعدها، دار الأرقم بالكويت .
- ٦- الطريق إلى دمشق ، أحمد عادل كمال ص ١٦٢ - ١٦٦ ، وقد أشار إلى فتوح الشام للأردني وتاريخ دمشق لابن عساكر .
- ٧- جاء عن السدي أن الحياة هي الإيمان ، وعن مجاهد : الحق ، وقال قتادة : القرآن ، وعن عروة ابن الزبير وابن إسحاق ، وعن الجرجاني : الدار الآخرة ، انظر : تفسير الطبري : ٢١٣/٩ - ٢١٤ طبعة الحلبي ، ابن كثير : ٢٩٨/٢ مكتبة الرياض ، الفوائد لابن القيم : ١١٥ - ١١٦ ، تفسير البغوي : ١٨/٣ بهامش الخازن ، وعن تفسير التنوع والتضاد، انظر: مجموع الفتاوي ابن تيمية: ٣٣٣/١٣ ، ٣٣٧ مقدمة في أصول التفسير: ٣٨ - ٤٢ .
- ٨- الفوائد لابن القيم : ص ١١٦ .

إندونيسيا تضطهد المسلمين

لازالت حكومة (سوهارتو) تضطهد المسلمين، وتكيل لهم الإهانة تلو الأخرى، في الوقت الذي فتحت فيه الأبواب على مصاريعها لكافة المنظمات التنصيرية، لتعمل على ردة المسلمين في البلد الذي يضم أكبر عدد من المسلمين في العالم. وقد جاءت الأخبار في الأونة الأخيرة تبين وجهاً آخر لحرب الحكومة ضد الإسلام، حيث صرح المسؤولون عن نية الحكومة في إلغاء التعليم الديني الأمر الذي أثار سخط المسلمين ونقمتهم، وسرت موجة احتجاجات عامة، وهاجمت نقابة المعلمين الإندونيسية هذه التصريحات، ودعت إلى ترسيخ التعليم الديني الذي هو أهم مادة بدلاً من إلغائه . كما أنكر ذلك أيضاً رئيس مجلس العلماء المسلمين الشيخ حسن بصري .

ولازالت الحكومة تعمل بدأب لاستئصال الإسلام واستبداله بالدين الذي وضعه نظام سوهارتو والذي لا يبعد عن الماسونية . حيث ينص هذا الدين الجديد المسمى

(باكسيلا) على خمسة مبادئ هي الإيمان برب واحد، الإنسانية، الوحدة الوطنية، الديمقراطية، والعدل الاجتماعي، وكان المسلمون المعارضون لهذا الدين الجديد قد قاموا بمظاهرات في سبتمبر عام ١٩٨٤، وكان ٣٠ شخصاً قد قتلوا عندما فتح جنود الحكومة النيران على تجمع أكثر من ١٥٠٠ من المسلمين واعتقل عدد كبير منهم ، تعرضوا لألوان شتى من التعذيب الوحشي الأمر الذي دعا منظمة (أمнести) Amnesty لحقوق الإنسان والتي مقرها لندن توصية نداء استغاثة إلى حكومة إندونيسيا، تناشدها فيه رفع الإهانات والتعذيب الوحشي عن المعتقلين المسلمين والذين يمنعون أيضاً من أداء الصلاة أو أي مظهر تعبدية ، وقد أجبروا على حلق رؤوسهم ، وناشدت المنظمة الحكومة الاستجابة لمطالبهم الإنسانية البسيطة كزيارة أقاربهم أو مقابلة أي أحد .

التجديد في الإسلام

تحدث الباحث - في المقال السابق - عن حديث المجدد ، وتناوله من حيث الثبوت . ثم من حيث المعاني المستخرجة منه ، وعرض أقوال العلماء فيه باستفاضة وقبل أن يدلف إلى الترجيح بين الآراء قدم لذلك بحديثين -كَبُشْرَتَيْنِ لهذه الأمة - مر أولهما في آخر المقال السابق ، وهو حديث : لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وفي هذا الجزء من البحث يتابع الكاتب دراسته لحديث المجدد، وللتجديد بشكل عام .

وقال الإمام الترمذي: (سمعت محمد بن إسماعيل يقول : سمعت علي ابن المديني يقول: هم أهل الحديث)(١) وروى الحاكم عن الإمام أحمد أنه قال : (إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم؟)(٢).

قال الحافظ في الفتح (بسند صحيح) (٣).

قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث : (ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين ؛ منهم شجعان مقاتلون ، ومنهم فقهاء ، ومنهم محدثون ، ومنهم زهاد ، وأمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض) (٤) ونقل ابن حجر كلام النووي ثم زاد في آخره: (ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد ، وأن يكونوا في بعض منه دون بعض ، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولاً فثانياً ، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد فإذا انقضوا جاء أمر الله) (٥) .

وثانيهما : قوله صلى الله عليه وسلم: " افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافتترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث

وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، قيل : من هي يا رسول الله؟ قال : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي: (٦) وهذا الحديث وإن كان فيه بيان تفرق الأمة الواحدة إلى شيع شتى ، إلا أن فيه بيان حفظ الله لدينه بإقامة فرقة ناجية تلتزم بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في اعتقادها وسلوكها وهذه الفرقة الناجية هي الطائفة المنصورة ، والله أعلم ، ولا نطن حديث المجدد بمعزل عن مفهوم هذين الحديثين . فحين تستحكم الأهواء ، وتعبث بهذه الأمة الآراء ، فتتفرق إلى هذه الفرق الكثيرة ، تكون الفرقة الناجية المنصورة هي القائمة بأمر الله في خضم هذه النزاعات والاضطرابات ، الملتزمة بمنهج الرسول صلى الله عليه وسلم- في جميع أمورها . ولا شك أن كل طائفة متحيزة على شيء من الدين سوف تدعي كما يدعي غيرها- أنها هي المقصودة في الأحاديث النبوية.

وكلُّ يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تُقرُّ لهم بوصل!

وليس من حقِّ أحدٍ أن يتحكم فيدخل من شاء ضمن هذه الطائفة ، وينفي من شاء وفق رغبته وهواه ، بل يكون ذلك وفق ميزانٍ عدلٍ مقسط ، وهو عرض حال المدّعي على الصفات النظرية والعملية التي وصف السلف الصالح بها هذه الفئة ، وهي :

١- موافقة اعتقاداتها لما كان عليه صلى الله عليه وسلم- وأصحابه ، في أبواب العقيدة كلها :

من أسماء الله وصفاته ، والإيمان ، والقدر ، إلى غير ذلك من أصول الاعتقاد. وأسعد الناس بذلك هم الذين يؤمنون بالنصوص إيماناً صادقاً دون أن يسلطوا عليها سهام التحريف والتأويل والإنكار والتضعيف . ومن أين يستطيع أحد أن يثبت أن الصحابة اعتقدوا بالأصول والنتائج التي اعتقدها المخالفون ممن أشربوا حب الكلام ، وجعلوا العقل الفلسفي حاكماً على النصوص ، ففسروا النصّ وفق ما يقتضيه ذلك العقل - في نظرهم - وإن أدى ذلك إلى أن يفهم من النصّ نقيض معناه . وليس بنا الآن حاجة إلى نقل نصوص الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة المهيدين لأنها أكثر من أن يتسع لها المقام ، ولكن نحيل إلى بعض مواطنها لمن يريد(٧).

٢- اعتمادها في التفقه والاستنباط على الوحي المنزل ، أو على ما أحال عليه الوحي المنزل من الأدلة كالإجماع الثابت ، أو القياس الصحيح أو المصلحة الراجحة التي لا تعارض نصاً من النصوص . وأين من ذلك الذين نبذوا مفهومات النصوص ، وتشبثوا بأقوال الأئمة وقدموها على الوحي المنزل حتى قال قائلهم : (كل نص خالف ما قاله الأصحاب فهو إما منسوخ أو مؤول) . وليس يعنى هذا نبذ أقوال أهل العلم المعبرين ونشر الفوضى بين المسلمين ، وفتح المجال للطلبة الصغار الذين لا يحسنون التلاوة ، فضلاً عن أن يعرفوا الناسخ والمنسوخ

والخاص والعام ، والمطلق والمقيد ليتولوا أمر الفتيا فيضِلُّون ويُضِلُّون . كلا ، فالتقليد في بعض الحالات يصبح (ضرورة) ، وهكذا نريد أن يعامل على أنه جائز ضرورة ، فمتى استغنى عنه الإنسان في أي مسألة تركه إلى الدليل .
 ٣- ومن الخصائص المهمة لأهل السنة -أهل الحديث كما يعبر البخاري وابن المدينة وأحمد -رحمهم الله- : الحرص على العمل بالشرع والتزام الأوامر والنواهي

ولقد تسرب إلى أذهان كثير من الناس أن كلمة (أهل السنة) تعني المذهب الاعتقادي فحسب ، وذلك خطأ بَيِّن ، إن المعرفة الصحيحة بالله التي يحرص عليها أهل السنة ليست هي المعرفة الذهنية الباردة ، بل هي المعرفة القلبية الحية التي ينتج عنها الخوف والرجاء والمراقبة والامتثال .
 ولذا كان الأئمة السابقون حين يذكرون أهل السنة يعتبرون من خصائصهم المحافظة على المفروضات والسنن والمستحبات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلة الرحم وحب المساكين والإحسان إلى الجيران .
 قال الإمام المحدث الشيخ أبو عثمان الصابوني المتوفي سنة ٤٤٩ هـ في رسالته (عقيدة السلف وأصحاب الحديث) : (. . . ويرون المسارعة إلى أداء الصلوات وإقامتها في أوائل الأوقات أفضل من تأخيرها إلى آخر الأوقات ويوجبون قراءة الفاتحة خلف الإمام ويأمرون بإتمام الركوع والسجود حتماً واجباً ، ويعدون إتمام الركوع والسجود بالطمأنينة فيهما ، والارتفاع من الركوع والانتصاب منه والطمأنينة فيه وكذلك الارتفاع من السجود والجلوس بين السجدين مطمئنين فيه من أركان الصلاة التي لا تصح إلا بها ويتواصلون بقيام الليل للصلاة بعد المنام وبصلة الأرحام ، وإفشاء السلام ، وإطعام الطعام والرحمة على الفقراء والمساكين والأيتام والاهتمام بأمور المسلمين ، والتعفف في المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمصرف ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والبدار إلى فعل الخيرات أجمع ويتحابون في الدين ويتباغضون فيه . . . الخ) (٨) وإلى هذا وذلك فأهل الحديث والسنة يحرصون على جمع الصف ووحدة الكلمة داخل هذا الإطار ، فهم ليسوا حزباً محدوداً ينفي من عداه بالهوى والتحكم ، ولكنهم راية عقديّة أثرية من انطبقت عليه صفاتها وخصائصها فهو من هذه الفئة أقرّ له الآخرون بذلك أم لم يقرّوا .

استحالة أن يكون المجدد من غير أهل السنة :

فهذه الفئة أو الطائفة الموعودة يستحيل أن يكون المجدد من غيرها استحالةً تامة . إذ هي القائمة بأمر الله ، المتبعة لشرعه ، السائرة على هدي نبيه حذو القذة بالقذة ، ومن ثم فهي المجددة لهذا الدين حين كاد يخلقُ بغيره الأهواء وظلمتها وهي الواقعة عند حدود الله حين تجارت الأهواء بأصحابها فلم يبق لهم من الدين إلا الانتساب ، فكيف يكون التجديد عمل غيرها ؟ .

وقد يكون لهذه الطائفة رؤوس يمتازون بالموقف الصلب الثابت ، والعلم الواسع ، والعمل الدؤوب في بلدٍ واحدٍ ، أو في بلدان متعدّدة ، فرداً أو أفراداً وهؤلاء من التجديد أوفى نصيب ، ولكن يصحُّ أن يقال: إن لغيرهم من المجاهدين في هذا السبيل من التجديد بحسبهم . وهذا ما تلتقي عنده آراء عددٍ من الأئمة المحققين ، وهو ما ينسجم مع ما قررناه في حديثي الافتراق والطائفة المنصورة -السابقين- .

وسياتي في سياق العرض التاريخي لحركة التجديد في الإسلام ما يكشف عن هذا ، وأنه إن جاز أن يكون المجدد في القرن الأول فرداً ؛ فإن احتمال ذلك أقل فيما بعد لأسباب منها : كثرة الشر والفساد ، واتساع مجالات الانحراف وطرقه وأسبابه ، واتساع رقعة الأمة وانتشارها ، وتناقص الخيرية في هذه الأمة حتى لم يعد يوجد الأفراد المستجمعون لصفات المجدد بحذافيرها ، بل هي مفرقة في عددٍ من فضلاء الأمة ونجباؤها .

يقول الإمام الحافظ ابن حجر - رحمه الله - بعد سياق الخلاف في المجدد: أفرد أم جماعة ؟ - : (ولكنّ الذي يتعين فيمن تأخر المحمل على أكثر من الواحد؛ لأن في الحديث إشارة إلى أن المجدد المذكور يكون تجديده عاماً في جميع أهل ذلك العصر ، وهذا ممكنٌ في حقّ عمر بن عبد العزيز جداً ، ثم في حق الشافعي . أما من جاء بعد ذلك ، فلا يعدم من يشاركه في ذلك) (٩) .

وقال : (لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحداً فقط ؛ بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة ، وهو متجهٌ ؛ فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير ، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد ، إلا أن يدّعي ذلك في عمر بن عبد العزيز فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير ، وتقدمه فيها ؛ ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه .

وأما من جاء بعده ؛ فالشافعي - وإن كان متصفاً بالصفات الجميلة - إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد ، والحكم بالعدل . فلعل هذا كل من كان متصفاً بشيءٍ من ذلك عند رأس المائة هو المراد ؛ سواء تعدّد أم لا) (١٠) .

وإن لحظت في كلام ابن حجر في هذا شيئاً من الاختلاف عن كلامه ذلك فهو هنا أكثر قناعة بضرورة تعدد المجددين في القرن الواحد ، حيث يعبر عن تسمية عمر بن عبد العزيز مجدداً فرداً بقوله : (.. إلا أن يدّعي ذلك في عمر..) ، وأما بالنسبة للشافعي فينفي ذلك عنه لعدم اجتماعه للصفات كلها ، في حين أنه قال قبل : (وهذا ممكن في حقّ عمر بن عبد العزيز جداً ، ثم في حق الشافعي) ، فالأولى بالأخذ بكلامه الأخير المنقول من الفتح ؛ لأن الفتح من أهم كتبه وأوثقها عنده وأثرها لديه ، ولتأخر الفراغ منه إلى سنة ٨٤٢ هـ ، وهذا الكلام المنقول هو في آخر أبواب الكتاب ، على حين فرغ من تأليف كتابه الآخر (توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس)

سنة ٨٣٥هـ (١١) ويلحظ أنه ألقه للثناء على الإمام الشافعي - رحمه الله - والإشادة به ، فاختلف موقعا الكلام .

وقال الإمام الذهبي : (من - هنا - للجمع ، لا للمفرد ، فنقول مثلاً : على رأس الثلاثمائة : ابن سريج في الفقه (١٢) والأشعري في الأصول ، والنسائي في الحديث . . . الخ) (١٣) .

وقال ابن الأثير : (لا يلزم منه أن يكون المبعوث على رأس المائة رجلاً واحداً وإنما قد يكون واحداً ، وقد يكون أكثر منه ؛ فإن لفظة (مَنْ) تقع على الواحد والجمع . وكذلك لا يلزم منه أن يكون أراد بالمبعوث : الفقهاء خاصة - كما ذهب إليه بعض العلماء - فإن انتفاع الأمة بالفقهاء ، وإن كان نفعاً عاماً في أمور الدين ، فإن انتفاعهم بغيرهم أيضاً كثير مثل: أولي الأمر ، وأصحاب الحديث ، والقراء والوعاظ ، وأصحاب الطبقات من الزهاد؛ فإن كل قوم ينفعون بفن لا ينفع به الآخر ؛ إذ الأصل في حفظ الدين حفظ قانون السياسة، وبث العدل والتناصف الذي به تحقن الدماء ، ويُتمكن من إقامة قوانين الشرع، وهذا وظيفة أولي الأمر . وكذلك أصحاب الحديث ينفعون بضبط الأحاديث التي هي أدلة الشرع ، والقراء ينفعون بحفظ القراءات وضبط الروايات ، والزهاد ينفعون بالمواعظ والحث على لزوم التقوى والزهد في الدنيا . فكل واحد ينفع بغير ما ينفع به الآخر . . فإذا تحمل تأويل الحديث على هذا الوجه كان أولى ، وأبعد من التهمة ، وأثبه بالحكمة . . فالأحسن والأجدر أن يكون ذلك إشارة إلى حدوث جماعة من الأكابر المشهورين على رأس كل مائة سنة ، يجددون للناس دينهم ..) (١٤) .

وقال الحافظ ابن كثير : (وقد ذكر كل طائفة من العلماء : بل الصحيح أن الحديث يشمل كل فرد من آحاد العلماء من هذه الأعصار ممن يقوم بفرض الكفائية في أداء العلم عمن أدرك من السلف إلى من يدركه من الخلف كما جاء في الحديث من طرق مرسلّة وغير مرسلّة : يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وهذا موجود والله الحمد والمنة إلى زماننا هذا..) (١٥) .

ثم أشار إلى الحديث المخرج سابقاً : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق . قال السهارنفوري نقلاً عن الشيخ محمد يحيى : (من يجدد لها دينها ، أي : نوعاً منهم وأشخاصاً ، فلا يلزم أن يكون واحداً بالشخص ، وإن ذهب العلماء في معنى الحديث إلى الذي نفينا . ووجه ما ذهبنا إليه أنه لا ينطبق على كثير ممن لم تشرف بالتجديد أن يكون جدّد كل نوع من أنواع الدين ، فكم من محدّث ليس له من تجديد الفقه نصيب ، وكم من باعثٍ على أعمالٍ حسنةٍ هو في نشر أقسام العلوم غريب . مع أنه لم يسمع أن أحداً من هؤلاء عمّ حديثه وفقهه جملة الأقطار وتشرفت بتجديده - بحسب الظاهر - جملة القرى والأمصار . وأما ما قلنا فالأمر سهل . مع أن كلمة

(مَنْ) ليست نصّاً في الشخص الواحد . . ولا يبعد أن يكون لكل مملكةٍ ، وبلدةٍ من معظم الممالك مجدّد على رأس مائة .. (١٦) .

وهكذا تلتقي أقوال هؤلاء الأئمة مع ما ذكرناه عن الإمام النووي من قبل في شأن الطائفة المنصورة . وهذا من شأنه أن يجعل كل مؤمن صادق الإيمان حريصاً على أن يقوم بدوره في عملية التجديد ، فالقضية لم تعد شخصاً يُنظر كما يُنظر المهدي أو عيسى بن مريم عليه السلام ، بل عدت واجباً منوطاً في عنق كل داعية مسلم .

معنى التجديد :

والتجديد يعني جعل الشيء جديداً ، فتجديد الدين يعني إعادة نضارته ورونقه وبهائه وإحياء ما اندرس من سننه ومعالمه ، ونشره بين الناس . وهذا اللفظ (التجديد) يؤكد أن التجديد الموعود لأبد أن يكون على حين فترة من العلماء ، واضمحلال لشأن أهل الحق وحملة السنة ، فيبعث الله هؤلاء المجدّدين ليعيدوا للناس الثقة بدينهم ، ويعلموهم ما جهلوا من شأنه . وهكذا يبدو جلياً أن التجديد لا يعني بحال من الأحوال إضافة شيء جديد إلى الدين ، كما أنه لا يعني بحال من الأحوال اقتطاع شيء منه ونبذه . فهذا وذاك ليسا في الحقيقة تجديداً ، وإنما هو مسحٌ وتجريد .

ليس من التجديد :

١- فالطريق الذي سلكه الفيلسوف الهندي (محمد إقبال) والنتائج التي توصل إليها في محاضراته:(تجديد الفكر الديني في الإسلام) ليست إلا تفسيراً كلياً للدين بمجموع مكوناته : الألوهية - النبوة - البعث - الجزاء . . الخ . . هذا التفسير أو التصور الذي يلتقي في معظمه مع مذهب الفلاسفة الاتحاديين الذين يرون الخلق مظهرًا يتجلى فيه الخالق ليس تجديداً للعقيدة (أو كما سماها: الفكر الإسلامي) ولكنه تجريد له من حقيقته الإلهية، وإضفاء للفكرة الصوفية الفلسفية عليه . والاتجاه العقلاني - عامة - الذي يحاول تفسير النصوص الشرعية وفق مقتضيات الفلسفة البشرية ، ويلوي عنق النص لياً ليتفق معها ليس تجديداً للدين ، لأن تجديد الدين يعني تثبيت معالمه وعقائده وأحكامه ليظهر تميزها واختلافها عما سواها من الأديان المحرفة المنسوخة أو من الآراء والفلسفات القاصرة ، وليس يعني إذابة تميزه وخلخلته بنائه لينسجم مع هذه أو تلك .

٢- والمنهج الإسلامي الذي اختطه بعض الدعاة استجابة للضغوط الواقعية والمتغيرات الاجتماعية والدولية - كما زعموا - واقتنعوا بموجبه بضرورة استبعاد بعض القضايا الشرعية والعقدية المسلمة لدى الأمة وعلماؤها منذ عصر الصحابة حتى اليوم .

ثم رأوا أنه لا يستقيم منهجهم إلا إذا هدموا الأسس التي بنيت عليها تلك القضايا لينتسنى لهم أن يتحركوا بحرية فرفعوا عقيرتهم بالمطالبة بتجديد هذه الأسس وتلك الأصول ؛ فلا بدّ - في نظرهم - من إعادة النظر في (أصول الفقه) و (أصول

(الحديث) و (علم الجرح والتعديل) ، بل من إعادة النظر في العقائد الإسلامية . وإخضاعها للنظرة العقلية المعاصرة! .

إنها المدرسة العقلية تطلُّ من جديد ، وإن كانت لا تلتزم بذات الأصول التي تواضع عليها العقلانيون الأوائل . وليس ثمة اعتراض منا على ضرورة صياغة أصول الفقه مثلاً صياغة ثلاثم العصر ، أو تنقيح مسائله وقواعده على ضوء الأدلة من القرآن والسنة ، ولا اعتراض لنا على ضرورة كتابة أصول الحديث كتاباً جديدة من حيث التوسُّع في موضوعاته ، ودراستها ، وترجيح بعضها على بعض بالأدلة الصحيحة ، مع مراعاة الأسلوب الجيد والإخراج الملائم .

ولا اعتراض لنا على ضرورة دراسة جوانب العقيدة - كما هي عند السلف - وإخراجها للناس أو تغيير طريقة عرض بعض القضايا المتعلقة بها ، وربط الدراسة العلمية بالأوضاع المستجدة كقضية الحكم أو الولاء - مثلاً .

ولا اعتراض لنا على ضرورة الدراسة الشرعية المتعمقة للقضايا البشرية الجديدة التي لم يتكلم فيها السلف - رحمهم الله - ؛ لأنها لم توجد في زمانهم فلم تدع الحاجة إلى الحديث عنها . كل هذا مما نطالب به ونعتبره من صميم عملنا في خدمة هذا الدين . لكن أن يتحول الأمر إلى (تغيير) لشيء نعتقد أنه (جزء) من الدين فهذا ما لا نرتضيه ، بل نعتبره تعدياً لحدود الله ، وخطيراً في (الاستسلام) الذي هو روح الإسلام .

وقديماً قال بعض السلف : (إن قدم الإسلام لا تثبت إلى على قنطرة التسليم) (١٧) . فالتجديد المقصود المنشود ليس تغييراً في حقائق الدين الثابتة القطعية لتلائم أوضاع الناس وأهوائهم ، ولكنه تغيير للمفاهيم المترسبة في أذهان الناس عن الدين ، ورسم للصورة الصحيحة الواضحة ، ثم هو بعد ذلك تعديل لأوضاع الناس وسلوكهم حسبما يقتضيه هذا الدين .

إن أي حركة تستهدف تغيير معالم الدين تكون في حقيقتها هدماً له وقضاء عليه ، وإن بدا أنها تدعو إليه ، أو تحقق له بعض المكاسب الآنية .

ونلاحظ في كلمتي (الأمة) و(دينها) أن الأصل فيهما العموم والشمول ، فهذه الحركة التجديدية التي تقوم عبر التاريخ الإسلامي في كل وقت يضعف فيه الخير وينكمش ، تستهدف إصلاح الأمة بكاملها في جميع أقطارها على كافة مستوياتها ، فهي ليست حركة إقليمية محدودة تقف عند بلد معين لا تتعداه أهدافها وطموحاتها ، وليست مقصورة على فئة معينة من الفئات التي تكوّن المجتمع ؛ بل تخاطب الشباب والشيخ والعامل والموظف والقريب والبعيد والرجل والمرأة تخاطب كل فئة على قدر ما تحتمله عقولها ، وبالأسلوب الذي يناسبها ، فالإسلام لم ينزل ليكون ديناً لفئة خاصة من العقلاء الأذكىء مثلاً! كلا ، بل الإسلام إنقاذ للبشرية - كلها - من ظلمات الكفر بأنواعه في الدنيا ، ومن ظلمات النار والسعير يوم القيامة. وقد أن الأوان أن

يعقل المسلمون والدعاة إلى الله خاصة - هذا المعنى فلا يحجبون الخير عن سائر فئات الناس ممن يتطلعون إلى الهداية ويتقبلونها ، ولو كانت استجابتهم تقف عن حد معين .

إن مجرد هداية فرد إلى الله تعالى ، ووصله بحبل الله المتين ، وإنفاذه من الكفر والشرك يعد هدفاً بذاته ومكسباً عظيماً للداعي والمدعو ، حتى لو وقف الأمر عند هذا القدر . فكيف إذا أصبح هذا المدعو يحمل الدين الصحيح لمن حوله بحماس أو بغير حماس؟! وقد آن الأوان أن يتحرك الدعاة الصادقون إلى ميدان عملهم الأصيل : (الأمة) الأمة التي عبثت بها أيدي المفسدين من : اليهود والنصارى والشيعوعيين والمخرفين من الصوفية والرافضة والمعتزلة وغيرهم. هذا على صعيد (الأمة) الممتد الفسيح .

مجالات التجديد :

وحين نلاحظ بجوار ذلك الكلمة الأخرى : (من يجدد لها دينها) نجدتها تفتح أمام الدعاة آفاقاً جديدة في طبيعة التجديد ونوعه.

إن هذا التجديد (للأمة) لا ينحصر في مجال واحد فحسب ، بل يمتد امتداداً آخر ليشمل تجديد الدين كله: فيشمل :

أولاً : التجديد في مجال العقيدة :

وهيئات أن يكون التجديد يعنى إضافة شيء آخر إلى العقيدة الربانية ، كلا بل التجديد هو تخلص العقيدة من هذه الإضافات البشرية لتصبح نقية صافية ليس فيها أثر لصنع البشر وآرائهم وفلسفاتهم. ولتفهم بالبساطة والوضوح التي فهمها سلف هذه الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

فأول خطوة في مجال التجديد العقدي هو تنقية العقيدة الإسلامية من آثار علم الكلام ومن جميع ما علق بها.

ومن التجديد في مجال العقيدة ربط آثارها الواقعية بها ، فلا يكفي أن يؤمن المرء بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله على مقتضى ما يدين به أهل السنة إيماناً عقلاً جافاً ، بل لابد من العمل على إحياء الآثار القلبية النابعة من صدق الإيمان .

لابد أن تطرق المعاني الباطنة التي هي جزء لا يتجزأ من العقيدة والإيمان : عمل القلب ، وعمل القلب هو الحب والبغض والخوف والرجاء والرغبة والرغبة والإنابة والخشوع . ولقد غفل الناس عن هذه المعاني - حتى العلماء - إلا من رحم الله - فطال الأمد ، وقست القلوب ، وصار الحديث عن صحة القلب ومرضه وعلاجه ، وعن المعاني الإيمانية القلبية وقفاً على الصوفية الذين أسرفوا وغلوا حتى عبدوا ذواتهم ومشايخهم ، فضلوا وأضلوا كثيراً عن سواء السبيل . ولقد كان أئمة السلف نماذج حية في صدق اللجأ إلى الله ، وعمق الصلة به ، ويقظة الضمير وحساسيته من جراء ذلك ، وأوفى الناس حظاً من ذلك صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم

التابعون لهم بإحسان ، ثم العلماء العاملون على مدار القرون . ومن يتأمل سيرهم وأحوالهم يجد ذلك الشيء العجيب الغريب .

إن من واجب الحركة التجديدية أن تولي هذه القضية عناية كبيرة ، فهي الأثر العملي المباشر للتصديق بالعقيدة . ولذا نجد أن الله تعالى بعد ما أثنى على المؤمنين بتصديقهم بيوم الدين ، اتبع ذلك بذكر إشفاقهم من عذاب الله ، فقال سبحانه : ((وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ)) [المعارج .]

وإن معالجة الانحراف الظاهر على كافة المستويات لا تستقيم إلا إذا صاحبها معالجة الانحراف الباطني؛ فما من فساد ظاهر إلا وله رصيده من الفساد الباطني ولا يحصل تغير الظاهر إلا بتغير الباطن .

وإن توجيه الناس لالتزام الأوامر واجتناب المناهي لا يستقيم إلا إذا صاحبته تربية للضمير وإحياء للمشاعر القلبية الصادقة التي تقف كالحارس اليقظ الساهر الذي يمنع تسلل الضعف أو التقصير . فهذا على ما وصفناه من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولكن طرح مثل هذه الموضوعات لا يحسنه كل أحد ، ولا يفلح فيه ويثمر إلا من كان يتكلم عن وجدٍ وانفعال ، أما عملية (التكلف) فلا تجدي شيئاً .

إن على الداعية الصادق أن يتعاهد قلبه ، ويحرك أشواقه ليكون لكلامه التأثير المطلوب . ومن التجديد المطلوب في مجال العقيدة : عرض الانحرافات الجوهرية التي تعيش اليوم بين المسلمين مما له تعلق بجوانب الاعتقاد ، مع بيان خطرها وتأثيرها ، والتحذير منها .

فالحديث عن موالاتة الكافرين وحكمها وتأثيرها على النفوس ، والخطر الزاحف بسببها سواء على مستوى الفرد أو الجماعة أو المجتمع ، والتركيز على ضرورة استقلال الأمة المسلمة وتميزها ، واستقلالها بإيمانها وشريعته على الأوضاع والعقائد والنظم الجاهلية .

هذا الحديث وربطه بقضية العقيدة أصبح مطلباً ملحاً مع لحوق كثير من المنسوبيين إلى هذا الدين بمعسكرات الكفر ، ومع ربط كثير من الأمم المسلمة مصيرها بالكافرين ، ومع الولاء السافر المكشوف الذي يعطيه الحاكمون لأعداء الله ، ومع الانفتاح الرهيب للمسلمين على المجتمعات والشعوب الوثنية والنصرانية وغيرها . والحديث عن قضية الحكم بغير ما أنزل الله ، وحكمه ، وضرورة رد الأمور كلها إلى شرع الله لأن هذا هو مقتضى الإسلام والتسليم ، وشرط الإيمان الذي لا يكون إلا به . وتربية الأفراد والمجتمعات على الولاء لشريعة الإسلام ، والحد من تنقصها أو اعتقاد أفضلية غيرها ، أو مساواته لها ، أو جواز الحكم بغيرها ، بحيث

يصبح الإيمان المطلق بشريعة الله قناعة راسخة لدى كل مسلم ، حتى لو فرضت عليه النظم البشرية الجاهلية .

كل ذلك أصبح طرقة والتركيز عليه ضرورة مع سيطرة القانون الوضعي على المسلمين من جهة ، ومع انتشار الأفكار المشككة في الإسلام وصلاحيته للبقاء والحكم من جهة ثانية .

ومثل هذا وذلك التركيز على توحيد العبادة خاصة في البلاد التي جهل الناس فيها معنى الألوهية وصرفوا العبادة للشيوخ والأولياء وقدسوا الأضرحة أكثر من تقديس المساجد! ، وبالجملة فالتأكيد على أمر من أمور العقيدة لا يعني أن هذا الأمر أخطر من غيره من القضايا التي لم يعنَ بها بنفس القدر ؛ لأن الدعوة إلى الله تهتم بمعالجة جوانب الانحراف ، وحيثما اتسعت دائرة الانحراف في مجال كانت الحكمة في التركيز عليه - مع عدم إهمال ماعداه .

ويشمل التجديد (ثانياً) : التجديد في مجال النظر والاستدلال ، وإحياء الحركة العلمية التي تهدف إلى دراسة القضايا الشرعية كلها دراسة مبنية على الدليل الشرعي الصحيح بعيداً عن عصبية المذاهب . فلسنا نعتقد أن الحق محصور في مذهب بعينه لا يخرج عنه بحال ، ولذا فالبحث عن الحق هو ضالة المسلم المنشودة ، أنى وجده سَعِدَ به وقبله غير ناظر إلى هذه الحواجز المذهبية . ولضمان سير منهج التفقه والاستنباط سيراً سليماً بعيداً عن الانحراف أو الفوضى التشريعية فلا بد من صياغة المنهج السليم للتفقه من خلال استقرار طريقة السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

ويشمل التجديد (ثالثاً) : التجديد في السلوك الفردي والاجتماعي بالعمل على صياغة حياة المسلمين بتفصيلاتها صياغة إسلامية شرعية ، والإفادة من المعاني الوجدانية التلبية التي يفترض أنها بدأت تستيقظ في النفوس ، بربط الأحكام التفصيلية بها .

إن الانحراف السلوكي في حياة المسلمين المؤمنين حقاً بهذا الدين يرجع إلى أحد سببين:

- ١- إما الجهل بحكم الله ورسوله في هذه المسألة .
- ٢- وإما ضعف الإيمان وضعف الإرادة بحيث تغلب الإنسان شهوته ، أو تغلبه ظروفه فيقع في المحذور . فمعالجة الجهل هي بالتعليم والتفهم وربط الناس بالنصوص الشرعية ، ومعالجة الضعف الداخلي هي بمخاطبة القلوب والتأثير عليها .

ومما نلاحظه في واقع المقصدين للوعظ والتعليم اليوم أن كثيراً منهم يعني بذكر الله واليوم الآخر والجنة والنار وعذاب القبر والموت وسكراته . وبغض النظر عن فشل الأسلوب الذي يستخدمه أكثر هؤلاء ، وعدم قدرتهم على التسلل اللطيف إلى قلوب

السامعين ؛ فإن الخطأ الذي نشير إليه هو أنهم لا يربطون المعاني التي أثاروها بقضايا سلوكية واقعية يجب أن تعالج .
 وفئة أخرى . من أهل الفقه تُعني ببيان الحلال والحرام وسائر الأحكام ، وبغض النظر عما يلاحظ عليها في منهجها ونتائجها ووسائلها ؛ فإن الأمر الذي نلحظه الآن هو عدم ربط هذه الأحكام بأصولها الإيمانية التي تدعو إلى العمل بها وامتثالها .
 وأنت حين تتأمل طريقة القرآن والسنة تجد أنه في الفترة المدنية حيث تتابع نزول الأحكام التفصيلية المنظمة لحياة المسلمين ، أصبح الحديث عن الحكم مرتبطاً بإثارة العقيدة ، وأصبح الكلام في العقيدة مستمراً في التحريض على امتثال الحكم ، ولذلك تذييل الآيات ببيان صفة من صفات الله كالعلم والحكمة والعفو والمغفرة والانتقام وشدة العقاب.. أو تتبع آيات الأحكام بآيات أخر تُرغّب في عفو الله ورضوانه والجنة ، وتحذر من سخطه والنار .
 وإذا أحسن الداعية سلوك هذا الطريق فسيجد فيه خيراً كثيراً ، وسيلمس آثاره الواضحة عن قريب .

ويشمل التجديد (رابعاً) : فضح المناهج والاتجاهات والأوضاع والمبادئ والسبل المخالفة للإسلام ليحيى من حي عن بيعة ، ويهلك من هلك عن بيعة . ولقد كان من مهمة الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه كشف طريق الضلال لئلا يلتبس بطريق الحق . فكان النبي يقول : ((فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)) [الشعراء: ١٥٠ - ١٥٢] . واستبانة سبيل المجرمين هي من مقاصد القرآن : ((وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيَّاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ)) [الأنعام : ٥٥] . فمن مهمات الدعوة الإسلامية على مدى الزمن أن تزيل أي التباس أو غموض قد يصيب الناس ، فيلبسون المنافق ثوب المؤمن الصادق ، أو يلبسون المبتدع الضال ثوب المتبع المهتدي .

الهوامش :

- ١- ذكره الترمذي في موضعين من سننه ، الأول في ٤/٤٨٥ كتاب الفتن ، والثاني في ٤/٥٠٤ نفس الكتاب.
- ٢- معرفة علوم الحديث ص ٢ نشرة : معظم حسين.
- ٣- فتح الباري : ج ١٣ ص ٢٩٥ .
- ٤- شرح النووي على مسلم في كتاب الإمارة ج ١٣ ص ٦٦ .
- ٥- فتح الباري ج ١٣ ص ٢٩٥ .
- ٦- الحديث ورد من طرق كثيرة عن عدد من الصحابة بألفاظ مختلفة ، منهم أبو هريرة ، ومعاوية ابن أبي سفيان ، وعبد الله بن عمرو ، وعوف بن مالك ، وأنس ، وأبو معاوية ، وأبو الدرداء ووائلته بن الأسقع ، وابن مسعود ، وسعد بن أبي وقاص . وهذه مواضع أحاديثهم على الإجمال:

- أبو داود: ٣٤ - كتاب السنة ، ١ - باب شرح السنة ، رقم ٤٥٩٦ ، ٤٥٩٧ ج ٥ ص ٤ .
- الترمذي : ٤١ - كتاب الإيمان ، ١٨ - باب ما جاء في افتراق هذه الأمة ، رقم ٢٦٤٠ ، ٢٦٤١ ج ٥ ص ٢٥-٢٦ .
- ابن ماجة : ٣٦ - كتاب الفتن ، ١٧ - باب افتراق الأمم ، رقم ٣٩٩١ - ٣٩٩٣ ج ٢ ص ١٣٢١ .
- أحمد : ج ٢ ص ٣٣٢ ، ج ٤ ص ١٠٢ ، ج ٣ ص ١٢٠ ، ص ١٤٥ .
- الحاكم في المستدرک في کتاب العلم ج ١ ص ١٢٨ ، وقال : صحيح على شرط مسلم و ج ٢ ص ٤٨٠ وقال : صحيح الإسناد ، وقال : هذه الأسانيد تقوم بها الحجة في تصحيح الحديث .
- الدارمي : ١٧ - كتاب السير ، ٧٥ - باب في افتراق هذه الأمة ، رقم ٢٥٢١ ج ٢ ص ١٥٨ .
- الطبراني في الكبير : ج ٨ ص ٣٢٧ رقم ٨٠٥١ ، و : ص ١٧٨ ، رقم ٧٦٥٩ ، و : ص ٣٢١ رقم ٨٠٣٥ ، ج ١٠ ص ٢٧١ - ٢٧٢ ، رقم ٢١١ - ٢١٢ .
- وفى الصغير ج ١ ، ص ٢٢٤ .
- الأجري في الشريعة ص ١٥ - ١٨ ، وابن أبي عاصم في شرح السنة ج ١ ص ٣٢ - ٣٥ .
- واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ج ١ ص ١٠١ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ؟ والطبري ج ٢٧ ص ٢٣٩ ورواه ابن أبي حاتم والحارث بن أبي أسامة وغيرهم .
- ٧ - انظر أقوالهم في :
- ١ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة للإمام اللالكائي ج ١ ص ١٥١ - ١٨٦ ، ج ٢ ص ٢٢٧ - ٢٣٠ .
- ٢ - العلو للعلي الغفار للأمام الذهبي ، ومختصره . للألباني .
- ٣ - مجموع (عقائد السلف) جمع: على سامي النشار ، عمار الطالبی .
- ٤ - الشرح والإبانة لابن بطة .
- ٥ - البدع والنهي عنها لابن وضاح القرطبي .
- ٦ - كتب : (السنة) لعبد الله بن أحمد بن حنبل ، وابن أبي عاصم ، والمروزي ..
- ٨ - ضمن الرسائل المنيرية ج ١ ص ١٣١ .
- ٩ - توالي التأسيس ص ٢٤ ب ، ٢٥ أ .
- ١٠ - الفتح ج ١٣ ص ٢٩٥ .
- ١١ - انظر : توالي التأسيس ، الصفحة الأولى ، وكتاب : ابن حجر العسقلاني للدكتور شاکر محمود ج ١ ، ص ٢٦٤ و ص ٣٠٦ ، و ص ٥٦١ .

- ١٢ - في الأصل : ابن شريح بالشين المعجمة والحاء المهملة وكذلك : رد في مسدرك الحاكم وفي الغيث المنسجم ج ١ ، ص ١٠٥ ، والصواب ما أثبتناه ، انظر : وفيات الأعيان ١/٦٦ - ٦٧ .
- ١٣ - فيض القدير ج ١ ص ١١ .
- ١٤ - جامع الأصول ج ١١ ص ٣٢٠ - ٣٢٤ .
- ١٥ - البداية والنهاية ٨٩/٦ مكتبة الفلاح بالرياض .
- والحديث رواه ابن عدي في الكامل (المقدمة ص ١٩٠ ، ٢٣٢-٢٣٣) والعقيلي في الضعفاء في المقدمة ج ١ ، ص ٩ ، وفي ترجمة معان بن رفاعة السلمي ج ٤ ص ٢٥٦ رقم ١٨٥٤ دار الكتب العلمية ، والخطيب البغدادي في الجامع ، ج ١ ص ١٢٨ - ١٢٩ ط مكتبة المعارف بالرياض .
- ونسبه الهيثمي في المجموع إلى البزار (ج ١ ص ١٤٠) ونسبه الخطيب التبريزي للبيهقي
- (ج ١ ص ٨٢) والإمام أحمد والعلائي ، وضعفه الأكثرون من منهم العقيلي ، والعراقي (التقييد والإيضاح ص ١٣٨ - ١٣٩) والهيثمي في المجمع وغيره . وانظر أيضاً التمهيد ج ١ ص ٥٩-٦٠ والبداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٨١ ..
- ١٦ - بذل المجهود ج ١٧ ص ٢٠٢ - ٢٠٤ ط دار الكتب العلمية .
- ١٧ - رسالة (عقيدة السلف وأصحاب الحديث) للأمام الصابوني ، ضمن مجموعة رسائل المنيرية ج ١ ص ١٢٠ .

شؤون العالم الإسلامي ومشكلاته

التغلغل اليهودي في القارة الأفريقية

أدانت معظم دول العالم إسرائيل بعد عدوانها على الدول العربية عام ١٩٦٧ وقطعت معظم هذه الدول علاقاتها مع إسرائيل ، أو جمدها ، ومن هذه الدول الدول الأفريقية - ماعدا جنوب أفريقيا العنصرية - وخسر اليهود مواقعهم التي أقاموها في هذه القارة ، ولكن ذلك لم يدفعهم إلى اليأس، وإنما إلى زيادة في بذل الجهد للعودة ثانية إلى هذه القارة التي تتمتع بمميزات مهمة .

فهي - من جهة - قارة غنية بالموارد الطبيعية ، كالمعادن ، والغابات ، وهي - من جهة ثانية - ذات موقع نموذجي بالنسبة لإسرائيل في قربها وسهولة الوصول إليه ، بحراً وجواً - بل وبرااً الآن ! .

وهي - من جهة ثالثة - سوق مفتوحة ، لأنها بحاجة إلى كل شيء : للخبرات الطبية ، والزراعية، والبحوث العلمية، وقبل كل ذلك وبعده ، فإن حكوماتها الدكتاتورية القمعية التي قامت، وتقوم، على إنهاك شعوبها، بحاجة إلى من يقدم لها المشورات

الاستخبارية، والمعونات العسكرية، التي تستطيع - عن طريقها وبواسطتها - تدجين شعوبها ، وسوقها وتوجيهها الوجهة التي تريد، وكذلك فإن الواقع الأفريقي وما يمتلئ به من مناخرات ومشاحنات بين دولها يشكل أفضل مناخ بالنسبة لإسرائيل لتستفيد منه أعظم استفادة، فأى جو يناسب اليهود أفضل من هذا الجو؟! . ولاشك أن من أكبر العوامل المساعدة لإسرائيل على عودتها إلى أفريقيا كان الظروف التي أعقبت حرب ١٩٧٣ .

فمع أن هذه الحرب قدمت للعالم الدليل على أسطورة (الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر) الا أن ما أعقبها من تطورات جعل إسرائيل تستفيد منها فوائد عظيمة ومن هذه الفوائد عودتها إلى أفريقيا.

فقد قدم تصالح بعض العرب مع اليهود، والتردد والفوضى والاضطراب الذي ما زال مستمراً إلى الآن عند البعض الآخر، الحجة القوية للدول الأفريقية التي أعادت علاقاتها مع إسرائيل، حتى إن اليهود وأصدقائهم من الأفارقة ليرفعون أصواتهم في المحافل الدولية فيسمع لهم، بينما تذهب الاعتراضات والاستنكارات التي لا تستند إلى شيء عملي أدراج الرياح، كصرخة في واد أو نفخة في رماد . عادت العلاقات أولاً مع ليبيريا ، وزائير ، وساحل العاج ، وأخيراً ، الكاميرون . * ففي ليبيريا، يبدو الاستغلال اليهودي واضحاً، فمثلاً: شركة (أيونا الدولية) الإسرائيلية فازت بحق استغلال مساحات شاسعة من غابات البلاد لفترة ٣٧ سنة !! وأسهمها الآن في بورصة نيويورك .

* وفي زائير، حيث (موبوتو) أشد المتحمسين لليهود، تقدم له إسرائيل خدمات عسكرية متنوعة، بالإضافة إلى مشاريع خاصة له، حيث تولى اليهود إنشاء مزرعة خاصة له في (نسيليه) ويتولون أيضاً مسؤولية مزرعة أخرى (أغريدين) . ومن جهة أخرى، التزم رجل أعمال يهودي (من أصل يمني) توظيف (٤٠٠) مليون دولار في مجال تربية المواشي والنقل، ولا زالت هناك مشاريع كثيرة ربما ستتم بعد زيارة الرئيس الزائيري (موبوتو) لإسرائيل.

* وفي ساحل العاج، حيث لا يخفي رئيسها عداؤه للعرب ، يعمل اليهود بجد خصوصاً بعد عودة العلاقات مع إسرائيل قبل تسعة أشهر. فمثلاً: قام مشروع لبناء مستشفى في قرية الرئيس كلف نصف موازنة وزارة الصحة في ساحل العاج، ونفذته شركة (سوليل نونيه) الإسرائيلية ، وكذلك فندق (إيغوار) في العاصمة أبيدجان .

* وفي الكاميرون، سبق إعادة العلاقات بينها وبين إسرائيل اتصالات بين الجانبين، فبعد محاولة انقلاب ضد الرئيس (بول بيا) عام ١٩٨٤، أقام غرفة عمليات أمنية لحمايته، يقوم عليها خبراء من الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية (الموساد) .

وقد شكلت كارثة (نيوس)، التي نتج عنها ضحايا بالمئات من جراء الغازات السامة المنبعثة من بحيرة (نيوس) البركانية، فرصة ذهبية أخرى لإسرائيل، ففي أثناء ذلك توجه رئيس وزراء العدو إلى (ياوندي) عاصمة الكاميرون مصطحباً معه فريقاً طبياً لمعالجة المصابين، وقد أعد الرئيس الكاميروني استقبلاً حافلاً لبيريز .

هذا على رغم ما كان يعلنه وزير خارجية الكاميرون (وليم ايتيكي مبومرا) من أن: (لا بحث في إعادة العلاقات مع إسرائيل، طالما أن علاقات إسرائيل مع بريطانيا على ما هي عليه) ! . وانفرطت المسبحة ..

لا يقتصر الأمر على الدول المذكورة، وإنما هناك دول تتهيا لإعادة العلاقات مع اليهود رسمياً ، وإن كانت علاقة إسرائيل! مع هذه الدول على المستوى الاقتصادي لم تنقطع .

ومن هذه الدول :

* نيجيريا، ففي هذه الدولة - ذات الأغلبية المسلمة - تقوم مؤسسات اقتصادية إسرائيلية عديدة ، فهذه مجموعة (أليسون) تفوز بعقود عديدة مع نيجيريا قبل الانقلاب الأخير ، وشركة أخرى لليهودي (غاوون) تفوز بعقد آخر في (لاغوس) بمبلغ (٦٠) مليون دولار، ومؤسسات أخرى تعمل هناك مثل مؤسسة (عايدا) للتجارة الدولية ، و(ديزنغوف) للنقل البحري، و(فيريد) لتمديدات المياه .

وتعامل وتعاون إسرائيل مع الحبشة (أثيوبيا) يعرفه القاصي والداني، فقد أقامت هناك مزارع لتربية المواشي، وتستطيع توفير كميات ضخمة من اللحوم المذبوحة على الطريقة اليهودية (كوشر)، وهي أيضاً تبيع البن الأثيوبي والأخشاب الاستوائية والعديد من المواد الأولية، والمنتجات الزراعية . وقصة يهود (الفلاشا) وحدها تضع أثيوبيا في رأس قائمة الدول التي عرفت بالعداء للعرب والحق على المسلمين .

وهناك أربع دول أخرى يتوقع أن تنضم إلى ركب الدول التي أعادت علاقاتها مع إسرائيل، وهي: توغو والغابون، وغينيا، وأفريقيا الوسطى، وكينيا .

وفي الوقت الذي تفك إسرائيل فيه عزلتها عن طريق عودتها إلى أفريقيا، تعمل على محور آخر فتعيد علاقاتها مع أصدقاء العرب الخُص!! دول المعسكر الشرقي فهاهي بولندا تعيد علاقاتها معها، وهناك اتصالات سرية وعلنية مع الاتحاد السوفييتي من

أجل ذلك أيضاً، وإذا ما عادت العلاقة مع السوفييت - وهي عائدة حتماً ، رغم تعثر المحادثات نتيجة للشروط الفوقية التي تملها إسرائيل وليس الاتحاد السوفييتي -

نقول: إذا ما عادت العلاقات مع السوفييت ، فما الذي يمنع دول (المنظومة

الاشتراكية الصديقة!) من الاقتداء برئيسهم روسيا؟! .

نكتب هذا الكلام لا لبتّ اليأس في النفوس ، وليس لإظهار مميزات من يسمون أنفسهم - كذباً وزوراً - بشعب الله المختار ؛ وإنما رجاء أن نتعلم من الزمان ، ونعتبر بأحداثه ، ولا مانع أن يتعلم الإنسان من عدوه ، واليهود هم اليهود ، ((ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَةُ أَنَّهُمْ لَئِنْ مَا تَقُفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ)) [آل عمران ١١٢] .

وحالنا معهم في استضعافنا، والاستهانة بنا، ودوس حقوقنا، والتنكيل المتواصل بنا على كل صعيد ، - عسكرياً واقتصادياً وإعلامياً - وتشويه صورتنا على مرأى منا ، ومرأى من العالم ومسمع - لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بتخبطنا وفرقتنا ، وبأسنا الشديد بيننا، ومحاولة الأقوياء الذين سلطوا علينا - بظلمنا ومعاصينا - طمس ذاتنا وعنوان وجودنا الحسي والمعنوي .

فهل نعي نحن - عرباً ومسلمين - الدرس من ذلك ، وهل نلتقي على الحد الأدنى من حقنا ونعي دورنا في العالم ، ورسالتنا فيه مقابل التقاء أعدائنا بشتى ألوانهم وأشكالهم على الباطل؟ .

الحضارة المعاصرة ... الوجه الآخر

[... والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأى صلاح للعالم إذا عدم الروح والحية والنور؟! والدنيا مظلمة ملعونة ، إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة].

ابن تيمية

نعرض في هذا القسم من المجلة لأحداث وأخبار هي من إفرازات هذه الحضارة المادية التي يراد لها أن تهيمن على العالم وتسخره لمفاهيمها ومعطياتها وذلك كي يعرف المخدوعون بهذه الحضارة، والذين يدعوننا إلى تقليدها والأخذ بها (خيرها وشرها وحلوها ومرها !!) أن لها جوانب مأساوية، وتكاليف قاسية .

إننا لسنا ضد العلم، أو التقدم الذي يسخر لراحة الإنسانية، فالعلم هو نتاج البشرية كلها، وكل الأفكار والاكتشافات والاختراعات هي نتيجة جهود مترابطة شارك فيها البشر جميعاً، على اختلاف ملهم وألوانهم وأجناسهم، ونحن - من جهة أخرى - لسنا ضد ما قدمت الحضارة المعاصرة من خدمات للبشرية، ولا نبخس الناس أشياءهم فنزري عليهم بما تفوقوا به علينا من معرفتهم للنظام والتخطيط، ومن تقديرهم لقيمة الوقت، ومن صبرهم ودأبهم على طلب المعرفة .. ولكننا نبرز هنا كيف أن أي حضارة إذا ابتعدت عن المنهج الإلهي تكون بمثابة المركبة التي تسير دون كوابح - فهي وإن بدت مسرعة - إلا أن النهاية الحتمية سوف تدركها .

وكذلك فإن الغرض من هذا الباب هو الإشارة إلى أن الحضارة التي تجعل كل همها الانصراف إلى الجانب المادي وتهمل الجوانب الأخرى التي استحق بها الإنسان صفة «الإنسانية» تكون بمثابة الطائر الذكي يطير بجناح واحد . إن الحضارة المعاصرة في جذورها تمتد إلى فكر اليونان والرومان الوثني فترضع منه تصوراً للحياة ، وطريقة تناولها للواقع والتعامل معه ، وإن المسيحية المحرفة لم تغير من النظرة الوثنية إلى الكون والأشياء ، التي تصبغ فكر هذه الحضارة ، بل إن الفكر الوثني هو الذي هيمن على المسيحية التي اعتنقتها أوروبا وبسط ظله عليها ودخل بتفسيراته وتأويلاته ، وتحريفاته إلى أخص خصائصها حتى مسخها وجعلها تتعايش معه .

وكل ما نراه من نتاج هذه الحضارة على المستوى الأخلاقي والفلسفي - مثل التمييز العنصري ، واستعمار الشعوب واستغلالها ، وإهدار كرامة الإنسان ، والنظرة الاستعلائية التي تحكم نظرة الإنسان الأوروبي إلى غيره والتخبط النفسي الذي يعيشه الذين ارتضوا أن توجههم هذه الحضارة - هو نتيجة طبيعية للنظرة المادية الفظة التي قدمتها هذه الحضارة إلى العالم والتي يراد منا أن نخضع لها . في الغرب: البلايين تصرف على الكلاب والقطط ... والملايين تعيش تحت مستوى الفقر!!

يقول خبراء اجتماعيون من جامعة بنسلفانيا إن محبي الحيوانات في الولايات المتحدة وحدها ينفقون أكثر من ثمانية بلايين دولار للاعتناء بحيواناتهم من القطط والكلاب ...

(أي أكثر من الدخل الوطني في أكثر من دولة من دول العالم النامي !!)
جريدة الرياض ١٤٠٦/١٢/٣٠هـ

هذا ما ينفقه الشعب الأمريكي المتحضر على الكلاب والقطط سنوياً .. يتم هذا في الوقت الذي يموت فيه الآلاف من الجوع والأمراض الناتجة عن سوء التغذية في كثير من الدول الأفريقية والآسيوية وغيرها (١) .. بل إن هذه البلايين من الدولارات تصرف على الكلاب في أمريكا رائدة الحضارة الغربية في الوقت الذي يعيش فيه الملايين من الشعب الأمريكي نفسه في فقر مدقع .. فلو قدر لك أن تدخل حياً من الأحياء الفقيرة في مدينة نيويورك أو غيرها من كبريات المدن الأمريكية - وخصوصاً الأحياء التي تقطنها أغلبية سوداء - لحدثتك نفسك أنك في بلد من أفقر بلدان العالم الثالث وما الدول الغربية الأخرى عن هذا ببعيدة إن لم تكن أسوأ حالاً منها . . .

ففي بريطانيا العظمى !! مثلاً: نشرت صحيفة الجارديان بتاريخ ٨٦/٦/٢٦ م تقريراً أعدته مجموعتان من مجموعات ممارسة الضغط على الحكومة: (إن أحد عشر مليون شخص يعيشون حالياً على-أو دون - مستوى الفقر .. وهذا العدد

كما لا يخفى يشكل حوالي ٢٠% من العدد الإجمالي للسكان ... وليس الشعب البريطاني بأقل شغفاً بالقطط والكلاب من نظيره الأمريكي، ولا هو بأقل صرفاً وإنفاقاً عليها .. فهذه تناقضات الحضارة الغربية وهكذا :

تموت الناس في الصحراء جوعاً ولحم الضأن يرمى للكلاب !!!
وإذا تركنا القطط والكلاب جانباً بهذه البلايين من الدولارات التي تصرف عليها، ونظرنا إلى ما يصرفه الشعب البريطاني من الملايين على الخمر (هذا الشعب الذي يحتضن بين جنبهيه أحد عشر مليون فقير) .. إذا نظرنا إلى ذلك فإننا نزداد ثقة بتناقضات هذا المجتمع الغربي المتحضر !!

ففي تقرير أعده خبراء الصحة ونشرته صحيفة التايمز بتاريخ ٢٥/٣/٨٦ م جاء فيه:
(إن البريطانيين ينفقون ٣٥ مليون جنيه استرليني يومياً !! على المشروبات الكحولية - ويدخل خزانة الدولة سنوياً ٦ بلايين جنيه كضرائب على هذه المشروبات ... لكن الفاتورة السنوية التي تصرفها البلد من جراء مفاصد هذه المشروبات قدرت بـ مليار و ٦٨٠ مليون جنيه، وذلك نتيجة التغيب عن العمل الناجم عن الأمراض التي تسببها الخمر، وأجور العلاج في المستشفيات والموت السابق لأوانه .. فماذا بقي من حضارة مجتمع ينفق أكثر من ١٢ مليار جنيه سنوياً على الخمر فقط ... في وقت يعيش فيه ١١ مليون من أبنائه تحت مستوى الفقر !!!؟

((وَأَيْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا))

في التقرير سابق الذكر والذي أعدته منظمة الحد من مفاصد الكحول، المدعومة من قبل الجمعية الطبية البريطانية ومجلس التعليم الصحي ومنظمات أخرى ونشرته صحيفة التايمز بتاريخ ٢٥/٣/٨٦ م في هذا التقرير جاء ما نصه :
(إن أكثر من ٢٥ ألف شخص يموتون سنوياً في بريطانيا كنتيجة مباشرة لسوء استعمال الكحول) .

(إن الشعب البريطاني يستهلك من الخمر الآن ضعف ما كان يستهلكه في الخمسينات من هذا القرن ، ولقد انخفضت أسعار الخمر بمعدل ٥٠% عنها في عام ١٩٥٠ م) .

(إن واحداً من كل ثلاثة سائقين يتسببون في وقوع حوادث السيارات والتي ينتج عنها آلاف القتلى والجرحى كل سنة ... قد تعدى الحد القانوني في تناول الشراب) .
(إن نصف المتهمين بجرائم القتل كانوا اثناءها مفرطين في السكر) .
(ويرتبط الشراب أيضاً بـ ٥٢% من الوفيات بسبب الحرائق وبـ ٣٠% من حوادث الغرق) .

(إن الحالة الهستيرية التي يعيشها المجتمع هلعاً من مخاطر المخدرات قد صرفت الانتباه بعيداً عن القاتل الحقيقي - يعني الخمر - ففي عام ١٩٨٤ قتل ٢٥٠٠ على

الأقل بسبب الإفراط في تناول الخمر.. بينها ٢٣٥ حالة وفاة فقط تسببت بها المخدرات).

إن السراب الذي يتطلع إليه المخدوعون بهذه الحضارة لتعكسه هذه الأرقام والإحصائيات فيظهر جلياً على حقيقته..

وصدق الله العظيم إذ يقول في محكم التنزيل : ((يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمْ لَكَبِيرٌ مِّنْ نَّفْعِهِمَا)) [البقرة: ٢١٩]..

نعم ، قد تجني الدولة الملايين كضرائب على الخمر ، وهذا في ظاهره نفع وغنيمة ، لكنها تنفق أضعافها نتيجة الحوادث والجرائم الناجمة عن تعاطي هذه الخمر... والشعب يدفع عسارة جيبه وكذ جيبه كي يطرب ويلهو ويسكر.. فإذا أفاق دفع فاتورة هذا الطرب والسكر مرة أخرى - لا بالمال هذه المرة - لكن بما يعاينه من ازدياد في الجرائم والحوادث والأمراض.. فأى نفع يقارن بكل هذه المفاسد والآثام.. فعلام إذاً تشرئب الأعناق إلى هذه الحضارة ، وينادي بالسير على خطاها المنادون... وهل ينادي بها بعد ذلك إلا السذج والبلهاء... ولهؤلاء نقول : هذه حقيقة هذه الحضارة... فهل أنتم منتهون؟

((فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ))

يقول تقرير صادر عن مؤتمر الإيدز (مرض نقص المناعة المكتسبة) بتاريخ ٨٦/٦/٢٥ ونشرته صحيفة الجارديان بتاريخ ٨٦/٦/٢٦ م .

(إن ٣٠٠ ألف حالة إصابة بمرض الإيدز ستقع في عام ١٩٩١م وحده إذا انتشر (فيروس) المرض في بقية أنحاء العالم كانتشاره الآن في الولايات المتحدة) .

وصرح الدكتور (جيمس كَرَنُ Dr James Curran رئيس برنامج الإيدز في مركز مكافحة المرض في أتلانتا Atlanta) إن ٧٤ ألف حالة جديدة ستهدد الولايات المتحدة في عام ١٩٩١ نفسه) .

وختم الدكتور (كَرَنُ) المؤتمر الذي دام ثلاثة أيام بتنبؤٍ خطير جاء فيه : (إنه مع مطلع عام ١٩٩١م سيكون أكثر من ربع مليون أمريكي قد أصيبوا بالمرض وإن ١٧٩ ألف آخرون قد أدى بهم المرض إلى الوفاة) .

وأضافت الصحيفة تقول : (ومن المعلوم أن أوربا تأتي بالمرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة من حيث عدد الإصابات بالمرض وبتخلف زمني قدره أربع سنوات ، حيث أعلنت منظمة الصحة العالمية بتاريخ ١٩٨٦/٦/٢٥م أن فرنسا هي أسوأ الدول

الأوروبية تائراً بمرض الإيدز ، فقد بلغت عدد الإصابات فيها وحتى شهر آذار (مارس) الماضي (٧٠٧) حالة إصابة ... وتأتي ألمانيا الغربية في المرتبة الثانية بعد فرنسا حيث بلغت حالات الإصابة بالمرض (٤٥٧) حالة وتأتي بريطانيا في المرتبة الثالثة بـ (٣٤٠) حالة إصابة ، وتحتل إيطاليا المرتبة الرابعة بما مقداره (٢١٩) حالة

(..

لعل هذه الإحصائيات التي صدرت عن مؤتمر الإيدز في باريس أحدث ما نشر عن انتشار هذا المرض الفتاك.. وإلا فالإحصائيات كثيرة ، ولا تكاد تطالع صحيفة يومية أو أسبوعية إلا وتجد حديثاً عن مرض العصر ... ولا نريد في هذه المقالة الدخول في دراسات علمية تفصيلية عن أعراض هذا المرض وأسبابه وآثاره فنحسب أن القارئ الكريم لا تخفى عنه مثل هذه الأمور عن مثل هذا المرض لكن لا يفوتنا أن نذكر أن ٩٥% ممن يصابون به هم ممن يمارسون الشذوذ الجنسي ، وأن الباقين ممن يتعاطون المخدرات أو ينقل لهم دم مصاب بهذا المرض ، كما لا يفوتنا أن نذكر أيضاً أن أكثر من ٩٠% ممن يصابون به يؤدي بهم أخيراً إلى الوفاة . . ولنقف قليلاً عند حقيقة أن أكثر من يصابون به هم من اللوطيين ..

فإذا كانت القوانين والحكومات الغربية قد أعطت للوطيين ما يطالبون به من حقوق، فسمحت لهم بإقامة الجمعيات للشذوذ الجنسي ، وافتتاح النوادي التي يمارسون بها هوايتهم الشاذة ، كما سمحت لهم بترويج المجلات وأشرطة الفيديو التي تدعو إلى مثل هذا السلوك المنحرف . بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فصرنا نقرأ ونسمع بعض أعضاء البرلمان في أكثر من دولة من دول الغرب ينادون باعتبار الشذوذ الجنسي ظاهرة طبيعية بحتة .. ومنهم من يطالب بإدخال الشذوذ الجنسي كمادة تدريس في المدارس الثانوية!!

وهل بقي للشاذين جنسياً في هذه البلدان من حقوق يطالبون بها بعد أن سمحت الكنيسة بزواج الرجل من الرجل رسمياً!!

أقول : إذا كان هذا هو وضع اللوطيين في الحضارة الغربية . . فنحن -المسلمين - قد نبأنا الله بما حل بقوم لوط (عليه السلام) . . بل وأرادوا إخراج نبيهم لوط وأتباعه من قريتهم . . أتدرون ما جريرتهم؟! لأنهم أناس يتظهرون!! ... تماماً كما تصنع الجاهلية المعاصرة حيث تسمي من يتظهر من هذه الأحوال بالرجعيين والمتطرفين . لقد أنزل الله بهم عقابه الذي لا يرد فجعل عالي قريتهم سافلها وأمطر عليهم حجارة من السماء . قال تعالى : ((فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ)) [هود:٨٢]، ولما كان قوم لوط في دول الحضارة

الغربية قد أمنوا مكر الله وأمنوا عقاب القانون الذي أصبح يحميهم ويكفل حقوقهم المزعومة .. فقد آتاهم الله من حيث لم يحتسبوا فلم يخسف بهم الأرض ، كما فعل بأسلافهم بل سلط عليهم جنداً من جنوده ، سلط عليهم جرثومة هذا المرض المرعب الذي تنفطر له القلوب هلعاً . . . فإله سبحانه بالمرصاد ولا يهمل الظالمين ولا يغفل عنهم . . . وإنا لنجد في انتشار هذا المرض بالذات وغيره من الأمراض الجنسية في بلاد الغرب ، والتي تؤدي بأصحابها أخيراً إلى الموت مصداقاً لحدث المصطفى -صلى الله عليه وسلم- الذي رواه بريدة (رضى الله عنه) إذ يقول : « ما نقض قوم العهد إلا كان القتل بينهم ولا ظهرت الفاحشة في قوم إلا

سلط الله عليهم الموت ، ولا منع قوم قط الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر » (رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير رجاء بن محمد ، وهو ثقة) .
 وهل شيء في بلاد الغرب أظهر من الفاحشة، وهل يحظى شيء، بقدر من الإعلان والإعلام كما تحظى به الفاحشة؟! أليست تعلن في أجهزة التلفاز بأشرطة الفيديو وعلى المسارح وعلى شواطئ العراة؟... أليس الملايين من البشر يقصدون هذه البلدان سنوياً بحثاً عن هذه البضاعة المزجاة؟..
 إذاً؛ هذه سنة الله التي لا تتخلف في القوم المجرمين، فلم يكن مرض الإيدز القاتل معروفاً قبل بضع سنين، وما ظهر إلا بعد أن أصبح للشذوذ قنواته الرسمية والقانونية التي يُمارس من خلالها .

ولعل أكثر ما يرعب علماء الغرب وأطبائه بصفة خاصة هو ذلك المرض الذي يكتنف (فيروس) هذا المرض، حيث فشلت كل الوسائل المتقدمة التي استخدمت حتى الآن للكشف عن ماهية هذا الفيروس وسبل مكافحته... بل ويزيد الأمر خطورة انتقاله حتى لغير الشاذين ومدمني المخدرات ... وإلى أن يتوصل العلم الحديث والتكنولوجيا المتطورة إلى اختراق هذا الغموض وحل هذه الرموز وإيجاد العقار الواقي ... إلى أن يحدث ذلك سيبقى الفرع والرعب جاثماً على قلوب الغربيين وهذا في حد ذاته عقاب من الله القائل عن حجارة قوم لوط ((وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ)) [هود: ٨٣] .

ونحن على يقين من أنه ما لم يقلع الغرب -ولن يقلع - عن هذه الفواحش فإن الإيدز لن يكون آخر وباء ينتشر بين صفوفهم . . بل إن سنة الله ماضية إلى قيام الساعة ((وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)) [طه: ١٢٤] وصدق الله العظيم إذ يقول : ((فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)) [الأنعام: ٤٤] .
 نعم أبواب كل شيء من الخيرات والأرزاق استدراجاً لهم ومن الأمراض الفتاكة والخمور المهلكة والمخدرات القاتلة ، ومن القلق النفسي والاضطراب العصبي والرعب والجرائم ... الخ .

وهذا بخلاف فيما لو آمنوا واتقوا لأصبحت هذه الخيرات والأرزاق بركات عليهم ، كما قال الله تعالى : ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)) [الأعراف: ٩٦] .

فليقف دعاة الأخذ بهذه الحضارة مع أنفسهم وقفة تأمل وتفكر ، وليعلموا أنهم إنما يدعون إلى مثل هذه الأمراض والإفرازات . . وإلا فنقل محاسن الحضارة الغربية من تقدم صناعي وقتني لا غبار عليه ... لكن دعاة هذا النوع من الحضارة - اليوم - قليل بين أبناء المسلمين ...

الربا .. صورته - أقسام الناس فيه

بقلم فضيلة الشيخ / محمد بن صالح العثيمين

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليماً ، وبعد.. فإن الله تعالى إنما خلق الجن والإنس وأودع فيهم العقول والإدراك وبعث فيهم الرسل وبعث فيهم النذر ليقوموا بعبادته والتذلل له بالطاعة مقدمين أمره وأمر رسله على ما تهواه أنفسهم ، فإن ذلك هو حقيقة العبادة ومقتضى الإيمان ، كما قال الله تعالى : ((وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا)) [الأحزاب: ٣٦].

فلا خيار للمؤمن -إن كان مؤمناً حقاً - في أمر قضاها الله ورسوله ، وليس أمامه إلا الرضا به ، والتسليم التام سواء وافق هواه أم خالفه ، وإلا فليس بمؤمن ، كما قال الله تعالى : ((فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)) [النساء: ٦٥].

وقد أخبر الله تعالى أن العدول عن حكمه وعن اتباع رسوله أنه أضل الضلال فقال تعالى : ((فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بغير هُدًى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)) [القصص: ٥٠].

إذا تبين هذا فاعلم أن أوامر الله تعالى تنقسم إلى قسمين : قسم فيما يختص بمعاملته سبحانه ؛ كالطهارة والصلاة والصيام والحج ، وهذه لا يستريب أحد في التعبد لله تعالى بها . وقسم فيما يختص بمعاملة الخلق وهي المعاملات الجارية بينهم من بيع وشراء وإجارة ورهن وهبة ووصية ووقف وغيرها ، وكما أن تنفيذ أوامر الله تعالى والتزام شريعته في القسم الثاني أمر واجب ، إذ الكل من حكم الله تعالى على عباده ، فعلى المؤمن تنفيذ حكم الله والتزام شريعته في هذا وذاك . ولقد شرع الله تعالى لعباده في معاملاتهم نظاماً كاملاً مبنية على العدل لا تساويها أي نظم أخرى ، بل كلما ابتعدت النظم أو ابتعد الناس عن العمل بنظم الشريعة كان ذلك أكثر الظلم ، وأوغل في الشر والفساد والفوضى .

وإن من الظلم في المعاملات واجتناب العدل والاستقامة فيها أن تكون مشتملة على الربا الذي حذر الله تعالى منه في كتابه وعلى لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - وأجمع المسلمون على تحريمه .

قال الله تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانِ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)) [البقرة: ٢٧٨-٢٨١].

وقال تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)) [آل عمران: ١٣٠-١٣٢].

وقال تعالى : ((الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)) [البقرة : ٢٧٥-٢٧٦] ،

يعنى لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المخبئل المجنون الذي يصرعه الشيطان . هكذا قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره . وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لعن أكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه ، وقال : هم سواء . واللعن : الطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى .

وفى صحيح البخاري من حديث سمرة بن جندب رضى الله عنه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رأى في منامه نهراً من دم ، فيه رجل قائم ، وعلي شط النهر رجل بين يديه حجارة ، فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد أن يخرج ، رماه الرجل الذي على شط النهر بحجر في فمه فرده حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج رماه الذي على شط النهر بحجر فيرجع كما كان ، فسأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن هذا الرجل الذي في نهر الدم فقيل أكل الربا .

ولقد بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأمته أين يكون الربا ، وكيف يكون ، بياناً شافياً واضحاً ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر - بالتمر ، الملح بالملح . مثلاً بمثل ، يداً بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى ، الأخذ والمعطى فيه سواء . رواه مسلم . وفي لفظ : فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد . فهذه الأصناف الستة هي محل الربا بالنص (١) : الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح وقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - كيفية الربا فيها فأوضح أن التبائع فيها يكون على وجهين :

الوجه الأول :

أن يباع منها بجنسه مثل أن يباع ذهب بذهب ، فيشترط فيه شرطان اثنان :

أحدهما : أن يتساويا في الوزن .

والثاني : أن يكون يداً بيد بحيث يتقابض الطرفان قبل أن يتفرقا . فلو باع ذهباً بذهب يزيد عليه في الوزن ولو زيادة يسيرة فهو ربا حرام ، والبيع باطل ولو باع ذهباً بذهب يساويه في الوزن وتفرقا قبل القبض فهو ربا حرام ، والبيع باطل ، سواء تأخر القبض من الطرفين أو من طرف واحد .

الوجه الثاني :

أن يباع واحد من هذه الأصناف بغير جنسه ، مثل أن يباع ذهب بفضة فيشترط فيه شرط واحد ، وهو أن يكون يداً بيد بحيث يتقايض الطرفان قبل أن يتفرقا ، فلو باع ذهباً بفضة وتفرقا قبل القبض فهو ربا حرام ، والبيع باطل ، سواء تأخر القبض من الطرفين أو من طرف واحد .

ولقد كان الذهب والفضة منذ أزمنة بعيدة محل التعامل بين الناس قيماً للأعيان والمنافع ، فأصبح التعامل بالأوراق النقدية بدلاً عنها والبدل له حكم المبدل ، فإذا بيعت ورقة من النقود بورقة أخرى فلا بد من التقايض قبل التفرق ، سواء كانت من جنسها أم من غير جنسها ، وسواء كانت هذه الأوراق بدلاً عن ذهب أم بدلاً عن فضة فلو صرفت ورقة نقدية سعودية من ذوات المائة بورقتين من ذوات الخمسين فلا بد من التقايض من الطرفين قبل التفرق . ولو صرف دولاراً بأوراق نقد سعودية فلا بد في التقايض من الطرفين قبل التفرق أيضاً . ولو اشترى حلي ذهب أو فضة بأوراق نقدية فلا بد من التقايض من الطرفين قبل التفرق لأنه كبيع الذهب بالفضة الذي قال فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - : فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد .

ولقد انقسم الناس في المعاملات الربوية إلى ثلاثة أقسام:

قسم : هداهم الله تعالى ونور بصائرهم ووقاهم شح أنفسهم وعرفوا حقيقة المال ، بل حقيقة الدنيا أنها عارية مسلوقة ، وفيء زائل ، وأن كمال العقل والدين أن يجعل الرجل المال وسيلة لا غاية ، وأن يجعله خادماً لا مخدوماً فتمشوا في اكتساب أموالهم وصرفها على ما شرعه لهم خالفهم الذي هو أعلم بما يصلحهم وأرحم بهم من أنفسهم ، فأخذوا بما أحل الله واجتنبوا ما حرم الله ، وهؤلاء هم الناجون المفلحون . قال الله تعالى : ((وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)) [الحشر: ٩] .

القسم الثاني : من تعاملوا بالربا على وجه صريح ، إما جهلاً منهم أو تجاهلاً أو عناداً ومكابرة ، وهؤلاء مستحقون لما تقتضيه حالهم من الوعيد على أكل الربا ، على ما جاء في نصوص الكتاب والسنة .

القسم الثالث : من تعاملوا بالربا من وجه الحيلة والمكر والخداع ، وهؤلاء شر من القسم الثاني ، لأنهم وقعوا في مفسدتين : الربا ، ومفسدة الخداع ، ولهذا قال بعض

السلف في أهل الحيل : يخادعون الله كما يخادعون الصبيان ، لو أنهم أتوا الأمر على وجهه لكان أهون .

ونحن نذكر من فعل هذين القسمين ما كان شائعا بين الناس . فالشائع من فعل القسم الأول ربا البنوك وهو على وجهين :

أحدهما : أن يأخذ البنك دراهم من شخص بربح نسبة مئوية يدفعها البنك كل شهر أو كل سنة ، أو عند انتهاء مدة الأجل إن كان مؤجلاً .

الثاني : أن يعطي البنك دراهم لشخص بربح نسبة مئوية يأخذها البنك كل شهر أو كل سنة أو عند انتهاء مدة الأجل ، إن كان مؤجلاً .

فأما إذا أخذ البنك الدراهم من شخص بدون ربح فله وجهان :

أحدهما : أن يأخذ هذه الدراهم على وجه الوديعة بأن يحفظ الدراهم بأعيانها لصاحبها ، ولا يدخلها في صندوق البنك ، ولا يتصرف فيها ، بل يبقيها في مكان إيداعها حتى يأتي صاحبها فيأخذها ، فهذا جائز ، وهذا الوجه ليس للبنك فيه فائدة اللهم إلا أن

يكون بين القائمين عليه وبين صاحب صحبة . فيحسنوا إليه بحفظ دراهمه في حرز البنك . ولذلك لو طلب البنك أجره على حفظها لكل شهر أجره معلومة لكان ذلك

جائزاً .

الوجه الثاني : أن يأخذ البنك هذه الدراهم على وجه القرض ، بحيث يدخلها في صندوق البنك ، ويتصرف فيها كما يتصرف في ماله ، فهذه قرض وليست بإيداع

وإن سماها الناس إيداعاً ، فالعبرة بالحقائق لا بالألفاظ ، وإذا كانت قرصاً للبنك فهي إرفاق به ومساعدة وتنمية لربحه ، فإذا كان البنك لا يتعامل إلا بالربا فلا ريب أن

إعطائه الدراهم على هذا الوجه حرام لأنه عونٌ ظاهر على الربا ، وإذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - لعن كاتب الربا وشاهديه فكيف بمن يضم ماله إلى مال

المرابي فيزداد ربحه ومراباته .

أما إذا كان البنك له موارد أخرى غير ربوية مثل أن يكون له مساهمات في شركات طبية المكسب ، وله مبيعات وتصرفات أخرى حلال فإن إعطائه الدراهم على هذا

الوجه ليس بحرام ، لأنه لا يتحقق صرفها في الوجه الربوي من تصرفات البنك ، لكن البعد عن ذلك أولى لأنه موضع شبهة ، إلا أن يحتاج الإنسان إلى ذلك ، فإن

الحاجة تبيح المشتبه لقوة المقتضى وضعف المانع . هذا هو الشائع من فعل القسم الأول من المتعاملين بالربا .

أما الشائع من فعل القسم الثاني من المتعاملين بالربا فهو أن يأتي الرجل لشخص فيقول : إني أريد من الدراهم كذا وكذا فهل لك أن تدينني العشر أحد عشر أو ثلاثة

عشر أو أقل أو أكثر حسب ما يتفقان عليه ، ثم يذهب الطرفان إلى صاحب دكان عنده بضائع مرصوفة قد يكون لها عدة سنوات إما خام أو سكر أو رز أو هيل

أو غيره مما يتفق عند صاحب الدكان ، أظن أن لو وجدوا أكياس سماد يقضيان

بها غرضهما لحصل الاتفاق عليها فيشتريها الدائن من صاحب الدكان شراءً
 سورياً غير حقيقي ، نقول إنه صوري لا حقيقي لأنه لم يقصد السلعة بعينها بل لو
 وجد أي سلعة يقض بها غرضه لاشرتها ولأنه لا يقبل السلعة ولا يحصها ولا
 يماكس (يكاسر) في الثمن وربما كانت السلعة معيبة من طول الزمن أو تسلط
 الحشرات عليها ، ثم بعد هذا الشراء الصوري يتصدى لقبضها ذلك القبض
 الصوري أيضاً ، فيعدها وهو بعيد عنها ، وربما أدرج يده عليها تحقيقاً للقبض
 كما يزعمون ، والقبض في مدلوله اللغوي أن يكون الشئ في قبضتك ، وبعد
 هذا القبض الصوري يبيعه على المستدين بالربح الذي اتفقا عليه من قبل ، ولا ندري
 هل يتصدى هو أيضاً لقبضها القبض الصوري كما قبضها الدائن أو يبيعه على
 صاحب الدكان بدون ذلك ، فإذا اشترها صاحب الدكان سلم للمدين الدراهم وخرج
 بها . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه (إبطال التحليل ص
 ١٠٩) : بلغني أن من الباعة من أعد بزراً لتحليل الربا فإذا جاء الرجل إلى من يريد
 أن يأخذ منه ألفاً بألف ومائتين ذهباً إلى ذلك المحلل فاشترى المعطى منه ذلك البز
 ثم يعيده الآخذ إلى صاحبه ، وقد عرف الرجل بذلك بحيث إن البز الذي يحلل به الربا
 لا يكاد يبيعه البيع البتات ا هـ .

وقال في الفتاوى ٢٩ / ٤٣٠ ، جمع ابن قاسم : إذا اشترى له بضاعة وباعها له
 فاشترها منه أو باعها للثالث صاحبها الذي اشترها المقرض منه فهذا ربا . وفي ص
 ٤٣٦ - ٤٣٧ من المجلد المذكور : فهذان المتعاملان إن كان قصدهما أخذ دراهم
 بدراهم إلى أجل فبأي طريق توصل إلى ذلك كان حراماً وفي ص ٤٣٨ منه : فهذه
 المعاملة وأمثالها من المعاملات التي يقصد بها بيع الدراهم بأكثر منها إلى أجل هي
 معاملة فاسدة ربوية ، قال : وعلى ولي الأمر المنع من هذه المعاملات الربوية
 وعقوبة من يفعلها ، وفي ص ٤٤١ منه : وكذلك إذا اتفقا على المعاملة الربوية ، ثم
 أتيا إلى صاحب حانوت يطلبان منه متاعاً بقدر المال فاشتراه المعطى ثم باعه على
 الآخذ إلى أجل ، ثم أعاده إلى صاحب الحانوت بأقل من ذلك فيكون صاحب الحانوت
 واسطة بينهما بجعل؟ فهذا أيضاً من الربا الذي لا ريب فيه . وفي ص ٤٤٧ منه :
 وأصل هذا الباب أن الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فإن كان قد نوى ما
 أحله الله فلا بأس ، وإن نوى ما حرم الله وتوصل إليه بحيلة فإن له ما نوى . وقال في
 أبطال التحليل ص ١٠٨ : فيا سبحان الله العظيم ، أيعود الربا الذي قد عظم الله شأنه
 في القرآن ، وأوجب محاربة مستحله ، ولعن أهل الكتاب بأخذه ، ولعن آكله وموكله
 وكتابه وشاهديه ، وجاء فيه من الوعيد ما لم يجئ في غيره إلى أن يستحل جميعه
 بأدنى سعي من غير كلفة أصلاً إلا بصورة عقد هي عبث ولعب يضحك منها
 ويستهزأ بها أم يستحسن مؤمن أن ينسب نبياً من الأنبياء فضلاً عن سيد المرسلين بل

أن ينسب رب العالمين إلى أن يحرم هذه المحارم العظيمة ثم يبيحها بضرب من العبث والهزل الذي لم يقصد ولم يكن له حقيقة وليس فيه مقصود المتعاقدين قط؟! . وقال ابن القيم وهو أحد تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الذي لم نر مثله في بابه : (إعلام الموقعين ١٤٨/٣) تحقيق عبد الرحمن الوكيل : وهكذا الحيل الربوية ، فإن الربا لم يكن حراماً لصورته ولفظه ، وإنما كان حراماً لحقيقته التي امتاز بها عن حقيقة البيع ، فتلك الحقيقة حيث وجدت وجد التحريم في أي صورة ركبت ، وبأي لفظ عبر عنها ، فليس الشأن في الأسماء وصور العقود ، وإنما الشأن في حقائقها ومقاصدها وما عقدت له . هـ .

وهذه المعاملة الشائعة بين الناس في التحايل على الربا تتضمن محاذير منها: أنها خداع ومكر وتحيل على محارم الله تعالى . والحيلة لا تحلل الحرام ، ولا تسقط الواجب ، بل تزيد القبيح قبحاً إلى قبحه ، حيث تحصل بها مفسدته مع مفسدة الخداع والمكر ، ولهذا قال بعض السلف في المتحايلين : يخادعون الله كما يخادعون الصبيان ، لو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون . ومنها : أنها توجب التماذي في الباطل ، فإن المتحيل يرى أن عمله صحيح فيتمادى فيه ، ولا يشعر نفسه بأنه مذنب ، فلا يؤنبها على ذلك ، ولا يحاول الإقلاع عنه ، أما من أتى الباطل على وجه صريح فإنه يشعر أنه وقع في هلكة فيخجل ويستحي من ربه ويحاول أن ينزع من ذنبه ويتوب إلى الله تعالى .

ومنها : أن السلعة تباع في محلها بدون قبض صحيح ولا نقل ، وهذا معصية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهى أن تباع السلع حيث تبتاع - أي في المكان الذي اشترت فيه - حتى يحوزها التجار إلى رحالهم . رواه أبو داود ، ويشهد له حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : كان الناس يتبايعون الطعام جزافاً بأعلى السوق ، فنهاهم النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يبيعوه حتى ينقلوه . رواه البخاري . . وقد يتعلل بعض الناس فيقول : إن عد هذه الأكياس قبض لها فنقول : القبض مدلول لفظي وهو أن يكون الشيء في قبضتك وهذا لا يتحقق بمجرد العد ، ثم لو قدرنا أن العد قبض ، فهل حصل النقل والحياسة ؛ والنبي - صلى الله عليه وسلم - نهى أن تباع السلع حيث تبتاع حتى يحوزها التجار إلى رحالهم .

وقد يتعلل بعض الناس بأن هذه المعاملة من التورق ، فنقول : ليست هذه من التورق الذي اختلف في جوازه فإن التورق أن يشتري المحاج سلعة بثمن مؤجل زائد عن ثمنها الحاضر من أجل أن يبيعها وينتفع بثمنها ، فهو يشتري سلعة بعينها مقصودة مملوكة للبائع ، أما المعاملة الشائعة هذه فليست كذلك فإن البائع والمشتري يتفقان على الربح ، وهي ليست في ملكه ، ثم إن السلعة ليست معلومة لهما ولا معلومة الثمن ولا مقصودة ، ولذلك يأخذان أي سلعة تتفق عند صاحب الدكان بأي ثمن كان

، حتى إن بعضهم إذا لم يجد سلعة عند صاحب الدكان تكفي قيمتها للدرهم التي يحتاجها المتدين رفع قيمتها حتى تبلغ الدرهم المطلوبة ، وربما اشتراها الدائن فباعها على المتدين ثم باعها المتدين على صاحب الدكان ثم عاد صاحب الدكان فباعها على الدائن مرة ثانية ثم باعها الدائن على المتدين ، وهكذا يكررون العقد مرات حتى تبلغ الدرهم المطلوبة فأين هذه المعاملة من التورق الذي هو موضع خلاف بين العلماء (٢) ، وقد نص الإمام أحمد رحمه الله تعالى في رواية أبي داود على أنها -أي مسألة التورق- من العينة ذكره ابن القيم في تهذيب السنن ١٠٨/٥ ، وذكر في الإنصاف عن الإمام أحمد فيها ثلاث روايات : الإباحة والكرهية والتحريم ، واختار شيخ الإسلام ابن تيمية تحريم التورق وكان يراجع فيها كثيراً فيأبى إلا تحريمها . وقد شاع في هذه المعاملة المتحيل بها على الربا . أن الناس يقولون فيها : (العشر أحد عشر) ، وهذا مكروه في البيع الذي ليس حيلة على الربا . وعن الإمام أحمد - رحمه الله- أنه الربا ، وقال أيضاً : كأنه درهم بدرهم لا يصح . وقد تدرج كثير من الناس بهذه المعاملة إلى الوقوع في الربا الصريح ، ربا الجاهلية الذي يأكلونه أضعافاً مضاعفة ، فإذا حل الأجل ولم يوف المدين إما لعجزه أو مماطلته قال له الدائن . خله يبقى بمعاشرته فيربى عليه كل سنة ذلك الربح الذي اتفقا عليه وسمياه معاشرة ، نسأل الله تعالى السلامة .

المخرج المشروع :

والموفق يستطيع التخلص من هذا الفخ الذي أوقعه فيه الشيطان والشح ، فيصرف تعامله إلى البيع والشراء على الوجه السليم ، ويقضي حاجة المحتاج إما بإقراضه ، وإما بالسلم بأن يعطيه دراهم بعوض يسلمه له بعد سنة أو أكثر حسبما يتفقان عليه ، مثل أن يقول : هذه عشرة آلاف ريال اشتريت بها منك ، مائة كيس سكر تحل بعد سنة ، وقيمة الكيس بدون أجل مائة وعشرة ريالات ، فهنا حصل للبائع الذي هو المستدين انتفاع بالدرهم ، وحصل للمشتري الذي هو الدائن انتفاع بربح عشرة ريالات في كل كيس ، وربما يرتفع سعره عند الوفاء فيربح أكثر ، وربما ينزل فلا يحصل له إلا دراهمه أو أقل وبهذا يخرج عن الربا ويكون كالبيع المعتاد الذي يربح فيه أحد المتعاقدين أو يخسر حسب اختلاف السعر . وهذه المعاملة كانت شائعة بين الناس إلى عهد قريب وتسمى في لغة العامة (المكتب أو الكتب) ينطقون الكاف بين السين والكاف ؟ فهاتان طريقتان لقضاء حاجة المحتاجين : القرض والمكتب . فإن لم يشأ المتعاقدان ذلك فثم طريقة ثالثة إذا كانت حاجة المدين بشيء معين مثل أن يكون محتاجاً لسيارة أو ماكينة وقيمتها كذا وكذا ، فيبيعهما الدائن عليه بأكثر إلى أجل يتفقان عليه ، لأن قصد المدين هنا نفس تلك العين لا دراهم بدرهم .
 ((وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)) [الطلاق : ٢-٣] ،
 ((وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)) [الطلاق: ٤] ، هكذا قال الله تعالى . وقال

تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)) [الأنفال: ٢٩].
 وقال تعالى : ((وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)) [البقرة: ٢٧٥].
 فالتوبة إلى الله تعالى إذا كانت نصحاً تمحو ما قبلها ، وإذا كانت هذه المعاملات المحرمة فعلها العبد تقليداً لمن يحسن الظن به أو تأويلاً اشتبه عليه به وجه الصواب ثم رجع إليه بعد علمه به فإنه لا يؤاخذ به ، فإنما المؤاخذة فيمن علم الخطأ وتمادى فيه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

الهوامش :

- ١- وألحق جمهور العلماء بها ما يساويها في العلة والحكمة على خلاف بينهم في تحقيق العلة ، وليس هذا محل بسطها.
- ٢- ولذا يحكى ابن تيمية الخلاف في التورق ، ولكن يقول في هذه المعاملة : هو من الربا الذي لا ريب فيه.

جرح في الجنوب

حسب اتفاقيات وسياسات الشرق والغرب، فإنه من مصلحتهم جميعاً أن تبقى نقاط ساخنة في العالم وتكاد تكون كل قارة من القارات النامية (النائمة) آسيا ، أفريقيا ، أمريكا الجنوبية تعاني من حروب أهلية أو حروب على الحدود بين دولتين، تستنزف خيرات هذه القارات إلى مصانع السلاح في الشرق والغرب، وتحنكر القرار السياسي في عواصم السلاح نفسها .
 ولعل من هذه النقاط التي يُراد لها أن تُصبح ساخنة في القارة الإفريقية هي جنوب السودان.

فبعد أن أغلق مجلس الشعب الإقليمي بجوبا عام ١٩٨٠ تأسست بمدينة طرابلس الليبية في سبتمبر ١٩٨١ جبهة تحرير السودان بقيادة عثمان إبراهيم طويل، واتخذت منطقة جنوب السودان ميداناً للصراع المسلح ضد النظام السابق ، ثم انقسمت هذه الجبهة وانفصل عنها عقيد نصراني اسمه جون قرنق بما يسمى الحركة الشعبية لتحرير السودان ، واتخذ من الأراضي الحبشية مقراً له ، انفصل عن رفاقه الذين اتفق معهم في أول الأمر على تحرير السودان من نميري وتسلمته والرقي بالمجتمع والاقتصاد السوداني قُدماً ، وعارض كذلك تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ولو كانت حسب عقلية النظام السابق ، مدفوعاً من كونه نصرانياً ، ولكن بعد زوال نميري ، وقيام حكومة مدنية أخرى لم يرجع قرنق ، وأعلن أن الجنوب السوداني نصراني على الرغم من أن النصارى لا يشكلون الغالبية في الجنوب ، . ويريد تخليصه من

الشماليين المتسلطين عليه بل ذهب أبعد من ذلك حيث أباد قبيلة (منداري) إبادة كاملة لأنها كانت موالية للحكومة المركزية في الخرطوم ، وكشر عن أنيابه الحاقدة كيف لا! والهيئات الكنسية العالمية عاونته على انشاء إذاعة في الأراضي الحبشية ، والاتحاد السوفيتي بدوره كالعادة مده بالسلاح عن طريق النظام الحبشي ذي الميول اليسارية .

ونقلت إلينا الأخبار نبأ إسقاط طائرة مدنية بعد إقلاعها من مطار ملكال الواقعة في الجنوب على بعد ٤٠٠ كيلو متر من الخرطوم ، وقد أسفر هذا الحادث الذي تعرضت له طائرة من طراز فوكر من طائرات الخطوط الجوية السودانية عن مقتل ٤٥ - ٦٠ شخصاً وُعلم أن من بين ضحايا الحادث عدداً من رجال الإغاثة الدولية (القبس الكويتية ٨٦/٨/٢٨، والعرب ٨٦/٨/١٨) وكانت حجة قرنق أن الحكومة السودانية تستغل الطائرات المدنية لنقل الجنود والسلاح إلى الجنوب وتُعد هجوماً للقضاء عليه، وازداد الأمر سوءاً حيث حذر جيمس انفرام مدير برنامج الغذاء العالمي في روما (٨٦/٨/٢٧) بأن ما يقرب من مليوني شخص مهددون بالموت جوعاً في جنوب السودان، وأضاف: إن جسراً جويّاً أنشئ في ١٥ أغسطس الحالي قد توقف بعد ثلاث رحلات جوية بسبب إسقاط الطائرة المدنية بالقرب من ملكال . وذكر أن المتمردين الجنوبيين في السودان قد أغلقوا معظم المعابر في جنوب السودان التي كانت تستخدمها وكالات الإغاثة لنقل الأغذية والمؤن، وحذر المتمردون بأنهم سيسقطون أية طائرة تحلق فوق المناطق التي يسيطرون عليها، وذكرت جريدة القبس قول العاملين في مراكز الإغاثة في كينيا إن أوغندا أوقفت إرساليات ومعونات الإغاثة إلى مناطق المجاعة في جنوب السودان ، لاتهام أوغندا السودان بمساعدة المتمردين الأوغنديين في شمال أوغندا ، فيبقى الجنوب السوداني بين سندان الورع ومطرقة الحرب .

لعله مما تقدم نستطيع تفسير مدى اهتمام حملات التنصير - على اختلاف كنائسها - بجنوب السودان منذ زمن بعيد حيث إنهم يقومون بنشاط واسع بين القبائل الوثنية والمسلمة في الجنوب و يقيمون المدارس والمستشفيات ومراكز لتجميع أطفال الفقراء وبالتالي تنصيرهم لإعداد كوادر نصرانية للدولة المزمع إقامتها في جنوب السودان على يد جون قرنق ، أو غيره .
ولعلنا نتاح لنا فرصة في المستقبل القريب للحديث عن حملات التنصير المحمومة في جنوب السودان .

رجل فقدناه

انتقل الدكتور يوسف زين العابدين إلى جوار ربه الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الأحد ٢٦ ذي الحجة الموافق ٣١ آب إثر عملية جراحية أجراها في أحد مستشفيات برلين بعد إصابته بجلطة في قلبه، وبقي رحمه الله أكثر من أسبوعين قبل وفاته وهو في حالة غيبوبة كاملة .

ودفن الفقيد -رحمه الله- في برلين، في مقبرة الأتراك يوم الأربعاء ٢٩ ذي الحجة الموافق ٣ سبتمبر بعد صلاة العصر ، وبعد أن صلى عليه جمع غفير من المسلمين يربو عددهم على ٥٠٠ شخص حضروا من مناطق مختلفة من ألمانيا وتركيا .
والدكتور يوسف زين العابدين تركي الأصل عراقي النشأة والولادة، ولد عام ١٩٣٧ في مدينة كركوك، ودرس الطب في تركيا، وبعد تخرجه من كلية الطب انتقل إلى ألمانيا ليتابع دراسته العليا، وقد تخصص في الجراحة العامة، ثم في جراحة الأوعية الدموية، ومكث في ألمانيا خمسة وعشرين عاماً .
كان فقيدينا -رحمه الله- دمث الأخلاق طيب القلب، محباً للخير .. كما كان من الدعاة إلى الله، وكان ينفق وقته وماله في سبيل دعوته وفضلاً عن هذا وذاك كان همزة الوصل بين الدعاة إلى الله من العرب والأتراك والألمان .
وأسرة تحرير البيان تتقدم بأحر التعازي لأرملة الفقيد وابنتيه ، وتسأل الله أن يلهمهم الصبر والسلوان .
اللهم اغفر لفقيدنا وأحسن مثواه اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تفتننا بعده وإنا لله وإنا إليه راجعون .

شخصيات إسلامية

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز

يقال : إن الولد سر أبيه.. ولعل أصدق مثال على ذلك ما كان من ذلك الفتى القرشي عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، ابن الخليفة الراشد الخامس الذي لا تخفى أخباره على أحد من المسلمين ، فهو العدل في حكمه ، الورع في عدله ، التقى في نفسه ، فنعم المرشد كان لأمته..

وعبد الملك كان - كأبيه - تقياً ورعاً ، لا يخشى في الحق لومة لائم ولو كان أباه الخليفة نفسه هو الجدير بالنصح والمعاتبة ، فالحق عنده فوق القرابة و فوق السلطة معاً ، لما اجتمعا في أبيه الخليفة.

يرى عبد الملك أباه عمر مرة غاضباً غضباً لم يكظمه ، فعمل فيه ما يعمل الغضب في الناس - وكان عمر فيه حدة تعين الغضب عليه إن اشتد - فلم يَهَبْ عبد الملك أن يرد أباه إلى القصد - بعد أن سكن غضبه - فقال له : يا أمير المؤمنين أنت في

قدر نعمة الله عليك وموضعك الذي وضعك الله به وما ولاك من أمر عباده يبلغ بك الغضب ما أرى؟.

وكأنما كانت كلماته كماء بارد سكب على وعاء ساخن فردّه إلى اعتدال وإذا بالخليفة عمر يستعيد كلماته مرة أخرى وكأنما عادت إليه رويته التي استلبها الغضب منه حيناً ، ولما سمعها مرة أخرى عجب لابنه ألا يأخذه الغضب؟! وطبيعة الناصح الأمين ، الصادق في نصحه ، أن يأتمر بما يدعو إليه الناس ، وأن تكون خلاله صورة عملية لما يلهج به من فضائل يبثها بلسانه بثاً ، وينشرها بعمله نشرأ ، وما كان عبد الملك إلا ذلك الناصح الصادق ، إذ قال لأبيه :

(ما تغني سعة جوفي إن لم أردد فيه الغضب حتى ليظهر منه شيء أكرهه) حق ذلك والله؛ فإن جوف الإنسان إن لم يسع غضبه المتأجج يردده فيه حتى يذهب عنه ، فقد أعان الشيطان على نفسه .

وقد سجل الإمام المروزي في كتابه (السنة) حواراً فريداً بين الخليفة عمر وبين ابنه عبد الملك يمثل روح تلك الأمة من الناس ، أمة خير القرون ، كيف كانت في أخذها للدين بقوة ، وفي إخلاصها لكتابها وسنة نبيها ، لا تهاب فيهما العذاب ولا الموت ، ولكن مالنا نكثر الحدث عن الحوار وما فيه ، فنخل بين القارئ وبينه ليشهد ما تحمله الكلمات من معان :

(أنبأنا خارجة بن عبيد الله بن عمر العمري قال : كان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز عندنا فكننا نوّذه ، فلما استخلف أبوه قدم علينا وهو ابن تسع عشرة سنة ، وأبوه يروض الناس على الكتاب والسنة وقد قطع بذلك... فهو يداريهم كيف يصنع . فقال له عبد الملك حين قدم عليه : يا أمير المؤمنين ألا تمضي كتاب الله وسنة نبيه ، ثم والله ما أبالي أن تغلي بي وبك القدور ؟ فقال له : يا بني إنني أروض الناس رياضة الصعب أخرج الباب من السنة ، فأضع الباب من الطمع ، فإن نفروا للسنة سكنوا للطمع ، ولو عمرت خمسين سنة لظننت أنني لا أبلغ فيهم كل الذين أريد فإن أعش أبلغ حاجتي ، وإن مت فالله أعلم بنيتي) .

إخلاص الشباب واندفاعه في تطبيق ما يراه حقاً ، وما يؤمن به صدقاً وحكمة الرجال التي تفهم طبائع النفس الإنسانية ومواطن الضعف فيها ، فتعالجها رقيقة بها حريصة عليها ، حتى تصل بها إلى ما تريد ، ولرب دواء متعجل يورث داءاً متمكناً :

داويت متئداً وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء

وهذا عبد الملك يقدر قيمة سويغات الحياة وكأنما يستشعر قصر عمره فيحسب للحظة حسابها ، ويحث أباه على الصبر مع الرعية في متابعة شؤونها دون كلل أو ملل.. (عن ابن أبي عبلة قال : جلس عمر يوماً للناس فلما انتصف النهار ضجر وملّ فقال للناس : مكانكم حتى انصرف إليكم . ودخل ليستريح ساعة فجاء إليه ابنه عبد الملك فسأل عنه فقالوا: دخل . فاستأذن عليه فأذن له فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين

ما أدخلك؟ قال: أردت أن أستريح ساعة . قال : أو أمنت الموت أن يأتيك ورعيتك على بابك ينتظرون وأنت محتجب عنهم؟ فقام عمر فخرج إلى الناس).
وقد أبت حكمة الله سبحانه إلا أن ترتفع تلك الروح الطاهرة والنفس الشريفة إلى بارئها في حياة أبيها ، وعلى حين شام منها حسن السمائل وصدق الدين وعلو الهمة ، فكان في ذلك الكثير من الخير خير للوالد الذي انضاف فقه لابنه إلى ثقل حسناته في ميزان الله بإذنه، وخير للولد إذ لم تصبه رذات السوء التي تنتثر على الأحياء طوعاً وكرهاً وإن جهدوا في الطاعة .
وهاهو الخليفة عمر يعبر عن ذلك حين دفن ابنه عبد الملك - الذي كان في العشرين من عمره فيقول : (والله يا بني لقد كنت براً بأبيك ، والله ما زلت منذ وهبك الله لي مسروراً بك ولا والله ما كنت قط أشد سروراً ولا أرجى لحظي من الله فيك منذ وضعتك في المنزل الذي صيرك الله إليه).
رحم الله عبد الملك ورضي عن أبيه عمر بن عبد العزيز.

ركن الأدب

عزة نفس

للقاضي: علي بن عبد العزيز الجرجاني

- ١- يقولون لي : فيك انقباضٌ ، وإثماراً أو رجلاً عن موقفِ الذلِّ أحجما
- ٢- أرى الناسَ من داناها هانَّ عندهمُ وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أَكْرَمًا
- ٣- وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كَلِّمَا بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سَلْمًا
- ٤- إِذَا قِيلَ: هَذَا مَوْرَدٌ، قُلْتُ: قَدْ أَرَى وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظُّمًا
- ٥- وَلَمْ أَبْتَدِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهَجَّتِي لِأَخْدِمَ مَنْ لَاقَيْتُ ، لَكِنْ لِأُخْدِمَا
- ٦- أَشَقَى بِهِ غَرْسًا ، وَأَجْنِيهِ ذَلَّةٌ؟! إِذَا، فَاتَّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمًا
- ٧- وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النَّفُوسِ لِعَظَّمَا
- ٨- وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانَ وَدَنَسُوا مُحْيَاةً بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

معنى الأبيات :

- ١- يتعجب الشاعر من اتهام الناس له بالعزلة والبعد عن الناس وعدم الانخراط فيما بينهم ، مع أن ابتعاده لم يكن إلا عما يورث نفسه الذل.
- ٢- اتخذت هذا الموقف لأنني رأيت أن كل من رضي بكل ما عليه الناس فدخل معهم ووافقهم على كثير مما هم عليه تهون نفسه عندهم ، ومن كان عنده عزة نفس تبعده عن مواطن الشبهة أكرمه الناس.

- ٣- والذي يدفع كثير من العلماء إلى مجاراة الناس هو المطامع المادية ، وهي لا تنتهي ولا أستطيع قضاء حق العلم إذا كنت كلما لاح مطمع من هذه المطامع جعلته سلماً لنفسي.
- ٤- لذلك ، تجاهلت هذه المطامع المُدَّة التي تتنافى مع شرف العلم ، فإذا أشار لي مشير إلى أحد هذه الموارد قلت له: إنني أرى ما ترى، ولكن يمنعني من الورود نفس حرة تصبر على العطش وتحمله.
- ٥- إن كثيراً من هذه المطامع تؤدي إلى خدمة من لا يستحق الخدمة ، وإلى مداراة أصحاب الدنيا وتسخير العلم لمصالحهم ، مع أنني لم أتعلم إلا من أجل إكرام نفسي لا إهانتها بذلك.
- ٦- هل أشقي نفسي في طلب العلم ، لأجني لنفسي الذل؟ مادام الأمر كذلك فالبقاء على الجهل كان أفضل من العلم الذي يكون سبباً في هوان صاحبه.
- ٧- لو أن العلماء حفظوا علمهم ، وترفعوا به عما لا يليق لحفظهم ، وكان ذلك سبباً في صيانتهم ومعرفة الناس حقهم ، ولو نظروا إلى العلم نظرة إعظام وإكبار لكان عظيمًا وكبيراً في أعين الناس.
- ٨- ولكن الواقع أن كثيراً من العلماء أهان العلم بتصرفاته ، فهان العلم في نظر الناس وحسبوا أن العلماء كلهم على هذه الشاكلة ، وأصبح العلم وبالاً على العلماء ومصدر شقاء لهم ، حتى ليكاد كثير منهم أن يتمنى لو لم يتعلم.

في جو الأبيات :

- هذه أبيات تقف شامخة -بعدها القليل- على امتداد الشعر العربي كله ، بل إنها لتكاد تكون كذلك في الأدب العالمي، من حيث بساطة التعبير وصدقته، ومن حيث جمال الأسلوب وترفعه.
- وقائلها هو القاضي أبو الحسن، علي بن عبد العزيز الجرجاني، قاضي الريّ المتوفى سنة ٣٩٢ هـ ، وكان عالماً، أقرّ له الناس بالثرد، وكان إلى ذلك شاعراً محسناً ، وناقداً دقيقاً، وكتابه (الوساطة بين المتنبي وخصومه) من أشهر كتب النقد في الأدب العربي، وهو مطبوع.
- وهي أبيات تظل جديدة ، لأنها لصيقة بموضوع حيّ، وقضية مصيرية، وهي علاقة العالم بغيره من الناس ، سواء ارتفعوا أو سفلوا.
- وسبب آخر يجعلها جديدة دائماً، وهو ما يراه الإنسان في كل عصر من تهاون بعض العلماء وتهالكهم على أقدام أصحاب الدنيا أو السلطة ، ودوسهم المعاني الشريفة التي يقتضيها العلم.
- إن الشاعر -هنا- صاحب قضية ، ذو شخصية واضحة قوية ، رسم حدودها بهذه الأبيات القليلة ، التي تقارب غرض (الفخر) ، ولكنها ما تلبث أن تنأى عما تواطأ

عليه أصحاب الفخر التقليدي من الشعراء ، من موضوعات يغلب عليها الادعاء والتطاول.

وبروز شخصية القاضي في هذه الأبيات لم يؤثر على شاعريتها القوية ، فالججاج بالدليل والبرهان أضاف إلى جمالها قوة ، وأعطانا حقيقة مفادها : أنه ليس صحيحاً بإطلاق أن شعر العلماء يكون متكلفاً يفتقر إلى الشاعرية الأصيلة. إن الشاعر يقدم في أبياته (مرافعة) جامعة عن نفسه ، ويدافع دفاعاً فذاً عن قدسية العلم التي وضع تحت وطأة المطامع والزلفى ممن لا يستحق. هاهم بعض الناس يضيقون ذرعاً بعدم خوضه في غمار الناس ، فيلصقون به تهمة الانقباض والانعزال ، وهي تهمة قاسية ، قد تلقى ظلالاً على شخصية العالم في نظرهم فيسارع إلى تخطئة من اتهمه بذلك ، وتوجيه مابدا من انقباضه التوجيه الصحيح ، فما حسبه هؤلاء انقباضاً ليس على إطلاقه ، وإنما هو بعد عن مواقف الذل ، ومواطن الهوان.

والذي دعا الشاعر إلى هذا الموقف هو رصيد التجارب المتراكمة ، التي علمته أن الناس يستهينون بمن يخوض معهم كل مخاض ، في جدهم وهزلهم ، ويوقرون من يقترب منهم بقدر ، ويخاطبهم بحساب.

ولعلنا نلاحظ أن هؤلاء المنتقدين يعييون على الرجل نوعاً من الابتعاد بعينه ، وهو الانكماش عن صاحب السلطان وعدم الانضمام إلى حاشيته ، فيرد عليهم قائلاً : إن للعلم حقوقاً ، ومن أظهر هذه الحقوق صيانتته عن المطامع ، والبعد عن التزلف والترفع به عما لا يليق بحملته، وإذا ما تورطت مع من دلف إلى أبواب السلاطين، أو أهل الدنيا، ابتغاء ما يتساقط من موائدهم من فتات ؛ أكون قد أهدرت حق العلم وخنث الأمانة.

ويبدو أن الشاعر لم يناً بنفسه عن هذه المواطن لأنه ليس بحاجة إليها ؛ بل هو محتاج إلى ذلك ، ولكنها نفس حرة ، ترى الموارد مُشْرَعَةً ، ولكنها تلمح من وراء هذه الموارد هواناً ومِنَّةً ، وضعة وصغاراً ، وإنفاقاً لشيء ثمين في سوق رخيصة ، فتتسلح بالصبر على الظمأ، يدفعها إلى ذلك إرادة قوية ، وشخصية متماسكة ، وهذا معنى يُنظَرُ فيه إلى بيئتي عنتره السائرين :

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة ، كجهنم وجهنم بالعز أطيّب منزل

وما أبلغ كلمة الفضيل بن عياض في هذا المجال: (إذا رأيت العالم يتردد على أبواب السلاطين فاعلم أنه لص).

ثم يلفت الشاعر نظر الذين ينكرون عليه موقفه ، من دهماء الناس ، أو من أدعياء العلم ، الذين يغرمهم بريق المناصب عن الحق ، ويغرقون أنفسهم في حماة الترخّص والتأويل فيقول:

لم أتعب عقلي ، وأجهد نفسي في طلب العلم من أجل أن أذلها في خدمة من لا يستحق الخدمة طلباً لمال ، أو حرصاً على جاه أو منصب ؛ وإنما جهدت في طلب العلم لخدمني هؤلاء الذين يراهم كثير من الناس فن مقام من يستحق الخدمة بينما أرى أن مرتبة العلم لا تدانيها مرتبة أبدأ . وهذا إبراهيم بن أدهم يقول في ذلك : (لو يعلم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف) ، يعني : العلم والتلذذ به . ثم يجسد الشاعر القضية تجسيدا بدهياً واضحاً فيقول :

أجهد نفسي وأتعبها في تحصيل العلم -كمن يتعب في إنفاق الجهد الجهد على غراس ، حتى إذا حان إثمار هذه الغراس اجتنى منها ثمر الذل؟! لاشك أن من يعمل لتكون نتيجة عمله هذه النتيجة إنسان أخرق ، وإن عيشاً في ظلال الجهل خير من علم يورث الذل ويكون وبالاً على صاحبه .

وإن ما نرى من هوان العلم والعلماء ، (وهذه القضية بدأت من قديم، ثم زادها الزمن ترسخاً ووضوحاً إلى يومنا هذا) ونظر الآخرين إليهم نظرة ازدراء، سببه نابع من نفوس هؤلاء العلماء الذين لم يصونوا العلم، ولم يحفظوه عن أن يهان ويتمرغ على أعتاب أصحاب الدنيا ، فلو اعتقد هؤلاء العلماء شرف العلم ، وعظمته في نفوسهم ؛ لعظموه في واقع حياتهم، ولكنهم وضعوه في غير موضعه، واستهدفوا به ما رخص من الأغراض، وما قرب من الغايات، وسخروه من أجل الدنيا، فهان في نظر الناس، ممن لا يعرف للعلم حقيقة؛ فأهانوا حماتة ، وعدوهم من سَقَطِ المتاع .

وبعد، فهذه أبيات القاضي الجرجاني، تقف معلمة بارزة في أدبنا العربي، بصدقها وجلالها وعظمة موضوعها ، وما أجدر طلبة العلم ، بُلَّة العلماء ، أن يتخذوها دليلاً لهم في حياتهم ، وخلال علاقتهم بالناس ، لأنها نفحة من الأدب الخالد الذي استظل بظل مفاهيم الإسلام العظيمة .

منصور الأحمد

الهوامش :

- ١- انقباض : انزواء ، وابتعاد عن الناس . أحجم : توقف ولم يتورط .
- ٢- دانا هم : اقترب منهم وخالطهم دون تحفظ .
- ٣- صيرته : جعلته .
- ٨- محياه : وجهه . تجهم : أصبح مشوهاً عبوساً غير جميل .

مراجعة وخيراتنا نهب لغيرنا

كلما تناقلت وسائل الإعلام أخبار المئات بل والآلاف من الذين يموتون جوعاً في السودان أو الحالة الاقتصادية المنهارة في أكثر الدول العربية تذكرت مقالة ذلك

اليهودي الحاقدي: (جوناثان هيلغي) حيث يقول: (هل أوصانا الله بأن نقود هذا العالم أم نأكله) إن رائحة الحقد والكراهية على بني البشر تفوح من مقالة هذا اليهودي ، وقد كان اليهود يطبقون هذه المقالة عمليا ولسان حالهم يقول : فلتسحق البشرية ، وليعيش شعب الله المختار ، ويطلق هذا الساخر مقالة أخرى حيث يقول : (تصوروا لو أن عدد اليهود يساوي عدد سكان الصين ؟) ويترك هذا التساؤل بدون إجابة وتترك للقارئ تصور ما سيحدث للعالم لو أن عدد اليهود يساوي عدد سكان الصين !! .

أعود مرة أخرى إلى اقتصاد الدول العربية ، التي حباها الله بالموارد الاقتصادية الضخمة من نفط ، ومعادن وأرض خصبة ، ومصادر للحياة ، وأيدي عاملة رخيصة ، وقد تتوفر كلها في بلد واحد والنتيجة : ديون خارجية تبلغ (١٠٠) مليار دولار . (نقلًا عن جريدة القبس ٢١ - ٧ - ٨٦) .

وسواء أكانت هذه الديون لبنوك غربية أو للبنك الدولي، ففي نهاية المطاف تصب في جعبة اليهود، وحين تعجز أي دولة عن تسديد الديون في الزمن المتفق عليه تبدأ عملية ما يسمى جدولة الديون وتأجيل التسديد مع زيادة الفائدة على الدين ، وحين تتأزم الأمور وتعجز الدولة عن تسديد الدين يتدخل صاحب الدين ويرسم خطة اقتصادية للدولة يكون أهم بنودها تخفيض العملة وزيادة الضرائب ورفع الدعم عن السلع المدعومة، وبالذات الغذائية منها ، وتتكسر هذه الصورة مع كل دولة من دول العالم الثالث المدينة . ومع كل هذا تعد أية جهة تنجح في الحصول على قرض من بنك غربي أو من البنك الدولي ، أو تنجح في إعادة جدولة الديون القديمة تعد ذلك انتصاراً ونجاحاً مع أنه - والله - قيد جديد يضاف إلى القيود التي سبقته ليبقى الاقتصاد مكبلاً بأغلال ثقيل ، مفاتيحها في جنيف ولندن وفرانكفورت وواشنطن وسواها من عواصم ومدن المال في العالم الغربي وتبقى هذه السياسة سنين طويلة وتطبق بحذافيرها ، بحيث يصبح الناس ويمسون على هاجس : هل يجدون خبزاً أم لا ؟ .

فأنى قلبت البصر في العالم من حولك وجدت كل بلد يشكو من ضائقة اقتصادية معينة مع وجود هذه الثروات والإمكانات التي سبق ذكرها آنفاً وأصبح يصدق فينا قول الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول
وقبل هذا صدق فينا قول الله سبحانه وتعالى : ((وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)) [سورة النحل: ١١٢] ما ذاك إلا لانسلاخنا من ديننا الذي هو عصمة أمرنا وهو ما صنعتها أيدينا ، واليهود يخططون لمثل هذا الوضع الاقتصادي المزري لإحكام السيطرة على الشعوب وإذلالها ، حيث يعود هيلغي مرة ثالثة فيقول : (الجوع هو أفضل وسيلة لقيام الصلح بين العرب وإسرائيل) .

وبعد ما تقدم هل صحيح أن اقتصادنا بأيدينا؟!..!!

مشاهداتي في بريطانيا

د. عبد الله مبارك الخاطر

عشت في لندن حوالي ثلاث سنين ، كنت خلالها أتابع دراستي في الطب النفسي وكان لي نشاط إسلامي في مسجد من مساجدها ، مسجد (بيكام Peckham) وكان هذا المسجد يضم نخبة خيرة من الشباب من مختلف البلدان العربية . وقد شاهدت في العاصمة البريطانية أموراً تستحق أن يكتب عنها . وسوف أعرض ما شاهدته على شكل حلقات متوخيماً في عرضي البساطة والعبرة .. والله الموفق.

خريج كامبردج

كنت مضطراً في البداية إلى دراسة اللغة الإنجليزية - رغم أنني كنت قد درست الطب باللغة الإنجليزية - من أجل اختبار (الزمالة) ذلك لأن الإنجليز يريدون من الجميع أن يكتبوا ويقرأوا كما يكتب المواطن الإنجليزي ويقرأ، ولما كنت أعمل في المستشفى في الصباح، فليس أمامي إلا أن أطلب مدرساً يعلمني فن كتابة المقالات، والعادة المتبعة عندهم أنك إذا أردت شيئاً ما فما عليك إلا أن تعلن إعلاناً صغيراً على واجهة محل تجاري أو على لوحة إعلانات لإحدى الكليات، ويأتيك الجواب سريعاً عن طريق الهاتف.

جاءني مدرس إنجليزي متخرج من جامعة كامبردج في الأدب الإنجليزي وأخذ يدرس لي مرتين في الأسبوع .. وبعد أن تردد على بيتي خمس مرات سألتني على استحياء فقال:

إن زميلاتي يسألنني كيف ترددت على بيت صاحبك خمس مرات ولم يقدم إليك زوجته لتتعرف عليها .

وكان سؤاله نقطة بداية في الحديث عن أمور أخرى غير الدراسة وكنت أنتظر مثل هذه الفرصة لأنني أعرف بأن الإنجليز لا يحبون أن تبادرهم بالحديث عن أمور لم يسألوا عنها وعليك أن تنتهز الفرصة فتجيبهم على تساؤلاتهم إذا سألوا .

قلت له ما موجزه: إن ديننا يأمرنا بحفظ المرأة وسترها، ولا يجوز أن تخالط أو تجالس غير محارمها ... ثم سألته عن الاختلاط والخلوة ولو كانت بين رجال ونساء متزوجين ألا يكون هناك مجال للخيانة الزوجية ولو بنسبة ٥%؟! .

فأجاب : نعم بل وأكثر من هذه النسبة فسألته مرة أخرى :

أليست هذه العلاقات غير المشروعة من أهم أسباب الفساد وتفكك المجتمع؟!..!!

قال :بلى .

قلت ما خلاصته: هذه حكمة واحدة من أحكام ديننا الذي يأمرنا بحرمة الاختلاط ..
ومن ثم فالمرأة مكرمة عندنا ولها حقوق كثيرة سواء كانت بنتاً أو زوجة أو أمّاً ،
فولي أمرها ينفق عليها ويعمل من أجل سعادتها ، وبين الأسرة في ديننا من المحبة
والتعاون والتكافل مالا يتصوره مجتمعكم .

قال : هذا جميل ومنطقي ... وقد لمست الصدق فيما يقول .

وعدت أسأله : ماذا تعرف عن الإسلام!؟

فأجاب : خميني وقذافي !!.

فظننته يمزح ولكن تبين لى أن هذا كل ما يعرفه عن الإسلام، ولا يعرف خريج
جامعة كامبردج [!!] أن هناك كتاباً اسمه القرآن الكريم ، ولا نبياً اسمه محمد - صلى
الله عليه وسلم- .. كان الرجل يتحدث أمامي وكأنه طفل صغير، ومعدرة منه الأطفال
في بلادنا فهم أكثر منه علماً بدين الله .

قلت: لا أدري من المسؤول عن كونك لا تعرف عن الإسلام شيئاً؟! هل هي
جامعاتكم ومناهجكم، أم أنت الذي ارتضيت لنفسك هذا الحال .. كيف لا يدرسون لكم
ديناً يدين به ألف مليون من البشر في مختلف بلدان العالم ، ولبلدكم علاقات تاريخية
ومصالح مع بلدان العالم الإسلامي .

وقبل أن يغادر الأستاذ [!!] منزلي قدمت له مجموعة من الكتب عن الإسلام .. ثم
اتصل بي فيما بعد وأخبرني بأنه قد قرأ هذه الكتب وسوف يقرأ كتباً أخرى عن
الإسلام .

قارئ الكريم: كم تمنيت أن يكون عندي متسع من الوقت لأتابع مثل هذا الرجل،
ولكن ماذا أفعل وأنا مرتبط بعمل شاق يستغرق معظم وقتي، ونشاطي في الدعوة
الإسلامية أقدم فيه الأهم على المهم. ولكن هل يعرف (البيغاوات) في دول العالم
الثالث حقيقة الغربيين!؟

لو كان خريج جامعة كامبردج مهندساً أو طبيباً لالتمسنا العذر له، ولكنه تخرج من
كلية تدرس علوم اللغة الإنجليزية وآدابها، ويفترض أن يدرس شيئاً يسيراً عن
الإسلام ..

أما الذين يكثر في مؤلفاتهم الأدبية والتاريخية من الاستدلال بأقوال المستشرقين
فلينظروا ماذا يدرس المستشرقون مثل هذا الخريج عن الإسلام .
اللهم إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

معالم حول كتابة التاريخ الإسلامي

(٢)

محمد العبد

على ضوء هذا التفسير الإسلامي للتاريخ (١) يجب أن نفهم تاريخنا ، فهو في جانب من جوانبه جزء من التاريخ العام للبشرية ، ينطبق عليه ما ينطبق على الأمم الأخرى من سنن نشوء المجتمعات وارتقائها، ينطلق عليه ما ينطلق على الأمم الأخرى من سنن نشوء المجتمعات وارتقائها، أو انحطاطها وتخلفها، ويخضع للعقوبات الإلهية التي تحل بأهل المعاصي والذنوب وأهل البطر والترف .

وفي الجانب الآخر له مميزاته وخصائصه، فهو مثلاً أقرب للصحة من غيره ، وذلك لارتباط نشأته بتدوين سنة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وسيرته وهذا مرتبط بدين هذه الأمة، فكانت العناية بصحة الأخبار ودقتها قد وقع فيه التشويه والروايات وهذا التشويه من السهولة بمكان كشف زيفها ، ثم إن ظروف نشأة الأمة وعوامل تكونها ، والرسالة التي تحملها وترى أن من أوجب الواجبات نشرها وتبليغها للأمم الأخرى ، كل هذا يجعل لكل أمة خلفيات معينة تساعد على فهم تاريخها ، فالدارس لتاريخ أوروبا الحديث لا بد أن يستحضر الحروب الصليبية وأثرها على الغرب النصراني عندما احتك لأول مرة بالحضارة الإسلامية .

إن ذكر مميزات تاريخ أمة أو خصائص هذه الأمة لا يعني بحال النظرة الفوقية المرضية كما وصف القرآن الكريم الأمم السابقة عندما قالوا : ((نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)) [المائدة ١٨] ((وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى)) [البقرة ١١١] ، ولكننا نصف واقعاً قد وجد ، ونتكلم عن تاريخ أمة مسلمة مؤمنة قد نشأت ، والذي ينكر هذا ، ويريد أن يبدأ من الشك والهدم أو ينظر إلى هذه الأمة من خلال نظرياته التاريخية ، أو ينظر إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- كرجل عبقرى وحدّ أمة وأقام دولة ، ويسمي هذا (نظرة حيادية) إلى أمثال هؤلاء لا نملك إلا أن نقول : ((وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا)) [البقرة ١٤٨] وهل تريدون باسم الحيادية أو الموضوعية أن تهدموا تاريخنا أم تريدون أن نهضم حقوقنا! ونحن إنما نكتب لدارس يحب الحقيقة أو لمسلم يريد التعرف على تاريخه .

بعض خصائص هذه الأمة :

أولاً : إن أولى هذه الخصائص أنها انبثقت فجأة ومن خلال (كتاب) وهو القرآن الكريم، الذي شكلها وصاغها أثناء تنزله لمدة ثلاثة وعشرين سنة، ومن خلال القدوة محمد صلى الله عليه وسلم وجيل الصحابة الذي رباه في كنفه، هذه الأمة لم تمر بأدوار وأحقاب متطاولة حتى استقرت على ما هي عليه وأنتجت حضارة هي الحضارة الإسلامية وإنما نشأت في بيئة عذراء، ومن قبائل هي أقرب للفطرة من الشعوب المجاورة ثم صاغها الوحي فخرجت زرعاً ((يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ

(الكُفَّارِ)) [الفتح ٢٩] هذه النبتة الأصلية قد استعصت على مؤرخ كـ (توينبي) أن يجد لها حلاً أو تفسيراً فحاول متعسفاً أن يرجعها إلى ما أسماه بـ (المجتمع السوري) أو العنصر الأرامي الذي بلغ أوجه في عهد سليمان (عليه السلام) واعتبر أن المجتمع الإسلامي هو وليد هذا المجتمع (السوري) هذا التحليل العجيب قد يعذر فيه توينبي لأنه لا يريد أن يفهم كيف تتكون أمة وتنتشأ من خلال (كتاب) ، بينما نرى نحن أن هذا النشوء السريع والقوي الذي تشكل بالوحي ورجل الفطرة هو الذي يفسر لنا أسباب الصراع الطويل بين مفهوم الدين كما فهمه العربي في الحجاز والجزيرة العربية يومها ، وكما فهمه العلماء المحدثون بعد ذلك ، وبين الذين التقطوا مخلفات الفرس واليونان حين دخلت على هيئة (علم الكلام) و(الصوفية) و(أبهة الملك) وزاحمت بساطة الإسلام وصفائه، وهو الذي يفسر لنا تلك المحاولات الماكرة والمستمرة من أعداء الإسلام للانحراف به يميناً أو يسرة مرة باسم التطور والحدثة ، ومرة باسم التعقل، وأخرى باسم التأويل، لأنهم يريدون أن يتلاعبوا بالقرآن كما تلاعب النصارى بأنجيلهم ويغيظهم كثيراً أن يبقى الإسلام حتى اليوم واضحاً كما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم- كما يغيظهم أنه لا توجد أمة من أمم الأرض اليوم تستطيع أن تكون مستقلة في عقائدها وتشريعاتها وكل أنماط حياتها مثل الأمة الإسلامية ، فهي تملك شخصية مستقلة في كل شؤون حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وهذا ما لا يريده الغرب والشرق المتسلط على الشعوب ، المغرور بقوته وعلمه .

هذه الحقيقة جعلت (توينبي) يذكرها مادحاً - وقلما يمدح الإسلام - يقول ذاكراً التحدي الشيوعي الذي يواجه المجتمع الغربي :

(وبفرض انتصار الشيوعية على الرأسمالية انتصاراً عالمي الطابع ، لا يعني هذا انتصار ثقافة أجنبية ، طالما أن الشيوعية - عكس الإسلام - تستمد أصولها من مصادر غربية - باعتبارها - يقيناً - رد فعل ضد الرأسمالية الغربية التي تحاربها)

(٢) .

والذين يزعمون أنهم يملكون شخصية مستقلة مثل الهنادكة الذين يقدسون غاندي ، هم في الحقيقة أسرى الحضارة الغربية، يقول توينبي:(ومن ثم نجد غاندي ينشئ حركة سياسية ذات برنامج غربي مداره تحويل الهند إلى دولة مستقلة برلمانية ذات سيادة) (٣) والحقيقة أن الثقافة الغربية تهيمن على أكثر شعوب الأرض ولا ينجو منها إلا من يملك مقومات الثقافة المتكاملة والتصور الشامل المخالف لثقافة الغرب والذي لا يتحقق وجوده إلا في الإسلام .

ثانياً : وهي أمة غير متقطعة ومستمرة بإذن الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فهي لا تضعف في جانب إلا وتقوى في آخر ولا تهزم في ناحية إلا وتنتصر في ناحية أخرى . واستقراء التاريخ الإسلامي يؤيد هذا ، فعندما ضعفت الدولة العباسية

ظهر السلاجقة في خراسان وأنقذوا الخلافة من سيطرة الباطنيين ، وكان من آثارهم بعدئذ السلطان العادل نور الدين محمود الذي تصدى للهجمة الصليبية على بلاد الشام ، كما ظهر الغزنويون في الأفغان والهند ، وكان مؤسس الدولة محمود الغزنوي من السلاطين الذين يحبون العلم والجهاد في سبيل الله ، وعندما ضعف الإسلام في المغرب وفي مصر ظهر صلاح الدين الأيوبي واستعصت القسطنطينية على الأمويين ولكنها استسلمت للعثمانيين الذين حققوا بشارة الرسول صلى الله عليه وسلم- بفتحها ، وعندما أخرج المسلمون من الأندلس كان الإسلام قد انتشر بواسطة الدعاة في وسط أفريقيا وفي جزائر إندونيسيا .

وإذا كانت قوى الشر قد تكالبت على المسلمين في العصر الحديث ، وكالت لهم ضربات شرسة ، فإننا نرى كيف يظهر الإسلام ويقوى في أماكن لم يكن أحد يتوقع أن يظهر فيها ، كل هذا تحقيقاً لدعاء الرسول -صلى الله عليه وسلم- كما ثبت عنه أنه قال : «سألت الله فيها ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ، سألته أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها»(٤).

ثالثاً : وهي أمة متجددة موعودة بأن يقيض الله لها دائماً علماء أو أمراء يجددون لها أمر دينها ، يقيمون العدل وينشرون العلم ويبعثون السنن كما جاء في الحديث : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»(٥).

وفى الحديث الآخر : «مثل أمتي مثل المطر لا يدري آخره خير أم أوله»(٦) وقد ظهر من العلماء والأفراد في كل عصر ما يحقق هذه البشارة كالأئمة الأربعة ، وأئمة الحديث كالبخاري ومسلم وأبي داود وأمثالهم من أئمة الفقه والاجتهاد في كل عصر كما ظهر فيها من الخلفاء والملوك من يجاهد في سبيل الله ويحب العلم ويقوم العدل ، ومن يراجع كتب التاريخ والتراجم فسيجد هذه النماذج دالة على ما ذكرنا ، وإذا كان العلم قد ضعف في القرون المتأخرة فقد وجد من السلاطين من كان همه الدفاع عن العالم الإسلامي وحمايته من الأخطار الخارجية ، وإن كنا لا نبرر تقصيرهم في نشر العلم ، ومع ذلك فإن هذا الضعف العلمي تلاه في العصر الحديث نهضة علمية إسلامية طيبة ، ووجد من العلماء ما يذكرنا بعصر ازدهار العلم في القرون الأولى ، ومن عجائب القرآن أننا نجد في كل عصر من يستخرج منه فوائد جديدة لم تخطر علي بال السابقين ، وهذا من بركة هذه الأمة.

ومن هذه الزاوية فإننا نخالف الأستاذ مالك بن نبي عندما قسم التاريخ الإسلامي تقسيماً حاداً وكأننا في معمل كيمياء أو في غرفة رسم هندسي ، إذ قسم هذا التاريخ إلى ثلاث مراحل : المرحلة الروحية وتنتهي عند معركة صفين ، والمرحلة العقلية وتنتهي في عصر دولة الموحدين في المغرب ، ومرحلة الغرائز وهي ما بعد الموحدين وحتى العصر الحديث ، إن هذا التقسيم وبهذا التعميم ، يلقي ظلالاً سوداء

حول الفترة التي يسميها (ما بعد الموحدين) كما يغفل عن فكرة التجديد الدائم ، فينطبع في ذهن القارئ أن فترة طويلة جداً من التاريخ الإسلامي هي فترة انحطاط وتخلف ، لا تحمل ماءً ولا تنبت كلاً ونحن نقول إن عوامل الضعف بدأت تنخر في الأمة الإسلامية من قبل عصر الموحدين إلى أن وصلت إلى ذروتها في نهاية الدولة العثمانية ، فالخط العام يسير نحو الضعف وإن كانت الدولة العثمانية في مراحلها الأولى كانت دولة إدارية عسكرية من الطراز الأول ، والبعث العلمي الذي بدأ في بعض الأقطار الإسلامية وكذلك الحركات المجددة - مثل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - إنما ظهرا إبان ضعف الدولة العثمانية ، فالخير مستمر ، بإذن الله ، والطائفة التي معها الحق هي في الأمة الإسلامية ، وليس هناك طائفة في أمة من الأمم اليوم تحمل ميراث الحق ، ميراث النبوة غير هذه الطائفة.

رابعاً : وهي أمة منتخبة لا تجتمع على ضلالة ، كما جاء عند عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : «إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة ويد الله على الجماعة ، ومن شذَّ شذَّ إلى النار» (٧).

أما الأمم الأخرى فقد تجتمع على ضلالة كإجماع الأمم النصرانية على تحريف الكتاب وتبديله واختراع البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان والأمة الإسلامية إذا وقع فيها شيء من هذا الانحراف فسند عشرين بل مئات من العلماء من يتصدون له ، منافحين عن نقاء الشريعة ، فهي من هذا الجانب - ورغم ما وقع فيها من الضعف والتفريق - من أعقل الأمم وأسلمها إذا ما قورنت بما تفعله الأمم الأخرى من سخافات وضلالات في حياتهم الخاصة والعامة ، والتقدم العلمي الذي أحرزه الغربيون لم يحصنهم من الوقوع في تخبط وصراع في حياتهم الاجتماعية والفكرية ، وما تفعله الأمم الوثنية أعجب وأعجب ، وإذا كان النقص قد وقع في القرون المتأخرة فلا شك أن القرون الأولى هي من خير الأمم كما ثبت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال : «خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم» (٨).

وهذا الفضل في الدنيا له مثل في الآخرة فإن الأمة الإسلامية ضعفاً أجر الأمم الأخرى كما جاء عند عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال : سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو قائم على المنبر يقول : «إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أوتي أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا ، فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر فعجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين ، فقال أهل الكتابين : أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ، ونحن كنا أكثر عملاً قال الله عز وجل : «هل ظلمتكم من أجركم من شيء ؟ قالوا : لا ، قال : فهو فضلي أوتيته من أشياء» (٩).

هذه الخصائص لا بد من ذكرها ، حتى لا نبخس الناس أشياءهم ، ففي غمرة السرد التاريخي قد يغط أصحاب الفضل فضلهم ، وربما بدعوى عدم التحيز ، أو التظاهر بالحياد .

وإذا كانت هذه الخصائص تعطي بعض الضوء لفهم التاريخ الإسلامي ضمن الأطر العامة ، فإن المتأمل لهذا التاريخ سيجد أمامه أحداثاً هامة وظواهر خاصة هي معالم في طريق الباحث والدارس تساعد على فهم أعمق ووضوح أكثر وهو ما يأمله كل مسلم يبحث عن الماضي ليبنى الحاضر والمستقبل ، وهذا ما سنتكلم عنه في العدد القادم إن شاء الله تعالى .
يتبع

الهوامش :

- ١- انظر ما كتب في العدد الأول عن هذا الموضوع .
- ٢- توينبي : مختصر دراسة للتاريخ ١/١ ٣٤ ط ٢ نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٣- المصدر السابق ١/٣٤٣ .
- ٤- سنن الترمذي ٣/٣١٩ ط دار الفكر ١٩٨٣ أبواب الفتن .
- ٥- أبو داود : كتاب الملاحم ٤/٤٨٠ .
- ٦- جامع الأصول ٩/٢٠١ قال عنه الترمذي حديث حسن .
- ٧- جامع الأصول ٩/١٩٦ أخرجه الترمذي وقال محقق الجامع : هو حديث مشهور المتن ذو شواهد متعددة .
- ٨- صحيح البخاري ٥/٦٢ باب فضائل أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-
- ٩- صحيح البخاري ١/٢٣٢ كتاب مواقيت الصلاة ط ٤ / عالم الكتب .

مفهوم الجاهلية في الشعر الجاهلي

محمد الناصر

ملخص ما سبق نشره:

انتهت المقالة الأولى إلى الكلام عن الحروب في الجاهلية، فتحدث الكاتب عن أسباب الحروب ، وعن أثرها على موضوعات الشعر المختلفة، فبيّن أن الحرب وما يكتنفها من موضوعات كانت من أهم دواعي الشعر، فالفخر نما في ظل الحروب والمعارك، وآخر ما استشهد به على ذلك ، أبيات من معلقة عمرو ابن كلثوم وهاهو يستأنف بحثه حول ذلك.

(فالمعلقة جميعها صياح شديد على هذا النحو الذي يرفع قبيلته تغلب على كل قبائل نجد شريقيها وغربيها ، فكل من حدثته نفسه منهم بقتالها كان مصيره الهلاك والدمار ، ويقول : إن حياتهم سلسلة من الحروب .. واعترف لأعدائه بشجاعتهم ، فهم يقتلون ويقتل منهم من قومه ، فثيابهم جميعاً ملطخة بالدماء ..) (١).

وهناك كثير من الشعراء وصفوا خصومهم بالشجاعة وتسمى قصائدهم بالمنصفة .

المنصفات من القصائد :

من ذلك قول المفضل التكري يصف موقعة بين عشيرته من بني نكرة ابن عبد القيس وعشيرة عمرو بن عوف يقول : (٢)

وكم من سيد منا ومنهم بذى الطرفاء منطقه شهيق
فأشبعنا السباع وأشبعوها فراحت كلها تئق فوق
فأبكيانا نساءهم وأبكوا نساء ما يسوغ لهن ريق

وصف مثير للمعركة ، فيه إنصاف للخصوم ، ورجولة تتعد عن الادعاء الفارغ ، تعجز عن هذه الرجولة جعجة الجاهلية الحديثة ، وفي كل شر .
ومن المنصفات أيضاً قصيدة للعباس ابن مرداس يصف فيها حرباً شديدة وقعت بين قومه بني سليم وبين قبيلة مراد ، وكان الشاعر رئيسهم عندما غزا مراداً بقيادة عمرو بن معد يكرب .. وفيها إنصاف للخصوم وشجاعتهم منها : (٣)

فلم أرَ مثل الحيّ حياً مصبّحاً ولا مثلاً لهما التقينا- فوارسا
فإن يقتلوا منا كريماً فإننا أبأنا به قتلى تذل المعاطسا

وهذا الشعر الذي يشيد بالأجاد والانتصارات، جعل شعر الحماسة من أروع الموضوعات، ولعله استغرق كثيراً من القصائد الجاهلية ، فهم يتغنون ببطولتهم وأنهم لا يرهبون الموت (ويرتفع هذا الغناء بل هذا الصياح في كل مكان بحيث يخيل إلينا أنه لم يكن هناك صوت سواه ، ولعل ذلك ما دفع أبا تمام إلى أن يسمي مجموعته من أشعارهم وأشعار من خلفهم باسم الحماسة.. فهي ديوانهم الذي يسطر تاريخهم ومناقبتهم ومفاخرهم ومن قرأ الأصمعيات والمفضليات يجد هذا الفخر وما يطوي فيه من حماسة يدور على كل لسان) (٤).

ونختم حديثنا عن المنصفات من خلال شعر الحماسة والفخر بقول الحصين بن الحمام المري عندما يندد بخصمه، ويصفه بالجبن، ويحاول أن ينصفه، ويصور لنا المعركة، وشدة البأس فيها، وأنهم مع خصومهم كانوا يعززون بعضهم، وتسود بينهم المودة والوئام: (٥)

ولما رأيت الود ليس بنافعي وأن كان يوماً ذا كواكب مظلماً
يُفْلَقْنَ هاماً من رجالٍ أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلماً
وجوه عدو والصدور حديثة بودٍ فأودي كل ود فأنعما
نطاردهم نستنقذ الجرد كالقنا ويستنقذون السمهري القوما

لقد كان هذا الشعر من فخر وحماسة ، يصور الذكريات الدامية ، والانتصارات الغاضبة للعرب في جاهليتهم، وكانت لذة النصر تحرك المشاعر، وشدة الغيظ والحقْد تلهب النفوس

الهجاء يشارك في المعارك :

ولقد حاول الشعراء أن يهاجموا خصومهم ، وأن يتهموهم بالجبن والفرار والهزيمة ، ولم يسلم الأشراف ولا السادة من اتهامهم بالعار والخزي ، وكان تأثير الهجاء عنيفاً على النفوس قوياً على المهجّوين ، وكثيراً ما بكى بعض السادة من ألم الهجاء ، فقد بكى علقمة بن عُلاثة و عبد الله بن جدعان ، ومخارق بن شهاب وهم من أشراف قومهم وسادة قبائلهم(٦).

وكان اللسان ينيكاً بهجائه في الأعداء نكاً السيوف والرماح ، وكان المتحاربون وكذلك الشعراء يتبارون في أيهم يكون أنفذ سهماً ، حتى لا تقوم للشريف وقبيلته قائمة. ومن هنا اقترن الهجاء عند عبد قيس بن خُفّاف البُرْحميّ بالسيف والرمح إذ يقول: (٧)

فأصبحتُ أعددتُ للنائبِ تِ عِرْضاً بريئاً وعضباً صقيلاً

ووقع لسان كحد السنان ورمحاً طویل القناة عسولاً

وكأنما أصبح همّ الهاجي أن يضرب عدوه الضربة القاضية. بل لكأن مناقبه كانت تؤذيهم فكانوا يلطخونه بالعار ، ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا شاعراً يهجو النعمان بن المنذر ، ويتهمه أنه لم يولد لِرِشدة ، وأنه ليس سليل المناذرة إنما هو سليل صائغ بالحيرة ، يقول عبد قيس بن خُفّاف البرجمي أيضاً: (٨)

لعن الله ثم ثنى بلعن ابـ من الصائغ الظلوم الجهولا

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ثم لا يرزأ العدو فتيلاً

الرتاء :

ولقد بكى الشعراء صرعى المعارك بكاء مرأ ، وندبت النساء الثكلى ، وكن مازلن ينحن على القتيل حتى يُثار له ، والخنساء كانت تخرج إلى عكاظ تندب أخويها ، وهند بنت عتبة كانت تنوح على أبيها. وكانت النسوة يشققن جيوبهن ، ويلطمن الوجوه ، ويقرعن صدورهن ، ويعقدن مآتماً من العويل والبكاء ، ومن أكثر النساء بكاءً ونشيجاً الخنساء حيث تبكي أباها صخراً ، ومن رائع ما ندبته به وقد قتل في إحدى المعارك: (٩)

قدى بعينك أم بالعين عوارُ أم ذرّفتُ أنْ خلت من أهلها الدارُ

كأن عيني لذكراه إذا خطرْتُ فيضُ يسيل على الخدين مدرار

تبكي خناسُ وما تنفك ما عمرت لها عليه رنينٌ وهي مقنّار

وإنْ صخرأ لتأتم الهدأةُ به كأنه علمٌ في رأسه نارُ

ويرثي أبو دؤاد الإيادي من أودي من شباب قبيلته وكهولهم فيقول في قصيدته: (١٠)

لا أعيد الإقتار عُدماً ولكن ففدُ من قد رزنته الإعدام

ويستمر يبكي فيهم الرؤوس العظام وخلالهم وصفاتهم ... ويقول : إنهم أصبحوا هاماً
وصدى ...

سلط الدهرُ والمنونُ عليهمُ فلم في صدى المقابر هامُ
فعلى إثرهم تساقط نفسي حشرات وذكرهم لي سقام
وأروع الرثاء ما ندب به الأبطال في حومات القتال ، لأن الشعراء في بكائهم وفي
تعداد مناقب الموتى يثيرون الأحقاد ويشحذون العزائم ويهيجون القبيلة للحرب
ويدعون إلى الأخذ بالثأر. (١١)

فهذه أم ندبة ترثي ابنها وتلوم زوجها حذيفة على قبول الدية : (١٢)
حذيفة لا سلمت من الأعادي ولا وفيت شر النائبات
أقتلُ ندبةً قيسٌ وترضى بأنعام ونوق سارحات
أما تخشى إذا قال الأعادي: حذيفة قلبه قلب البنات
فخذ ثأراً بأطراف العوالي وبالبيض الحداد المرهفات
وإلا خلني أبكي نهاري وليلي بالدموع الجاريات
لعلّ منيتي تأتي سريعاً وترقبني سهام الحاديات
أحبّ إلى من بعل جبان تكون حياته أردا الحياة
والمهلهل بن ربيعة الذي عرف بمراثيه لكليب يعدد مناقب أخيه ويذكر عزته
وعزمه .. يندبه كقائد للخيل يوم المعركة: (١٣)

أضحت منازل بالسلان قد درست تبكي كليباً ولم تفرغ أقاصيها
الحزم والعزم كانا من صنيعتهما كل لأنه يا قوم أحصياها
القائد الخيل تردي في أعنتها زهواً إذا الخيل لجّت في تعاديها
وشعر الرثاء الباكي كثير ، كثرة القتلى والمعارك الدامية. هذه هي الجاهلية قتال ،
وغزو وحرب ، وبكاء وحماس ومفاخر ومنافرة.

المنافرات :

مفردها منافرة ، وسميت هكذا لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة : إنا أعز نفرأ ..
ونافر معناه حاكم في النسب (١٤). وقد كثرت المفاخرات والمنافرات في الجاهلية ،
إذ يزعم كل فريق أنهم أكثر عدداً وأعز نفيراً ، وكان غالب مفاخراتهم منافراتهم
بالشجاعة والكرم والوفاء وذكر سادتهم وشجعانهم وأشرفهم ، وقد ذكر صاحب بلوغ
الأرب نماذج كثيرة من هذه المنافرات كمنافرة يمن ومضر ، ومنافرة الأوس
والخزرج ، ومنافرة عامر ابن الطفيل مع علقمة بن علاثة ، ومنافرة هاشم
وأمية (١٥).

ومن أشهر المنافرات منافرة عامر بن الطفيل مع علقمة بن علاثة تتنافرا على رئاسة
قومهما وذهبا إلى هرم بن قطبة الفزاري فقال لهما هرم :

إنكما قد تحاكما عندي وأنتما كركبتي البعير الأدرم (١٦) الفحل تقعان الأرض وليس منكما واحد إلا وفيه ما ليس في صاحبه وكلاكما سيد كريم. ولم يفضل واحداً منهما على صاحبه كيلا يجلب بذلك شراً بين الحيين ونحر الجزر وفرق على الناس. وعاش هرم حتى أدرك خلافة عمر رضي الله عنه فقال: يا هرم أي الرجلين كنت مفضلاً لو فعلت؟ قال: لو قلت ذلك اليوم عادت جذعة ولبلغت شَعَفَاتِ هجر. فقال أمير المؤمنين: نعم مستودع السر أنت يا هرم مثلك فليستودع العشيرة أسرارهم، وقال فيه الأعشى:

حكمتموه ففضى بينكم أبلج مثل القمر الباهر

لا يأخذ الرشوة في حكمه ولا يبالي غبن الخاسر (١٧)

وهكذا تجد أن هذه المنافرات تجسد لنا تلك العقلية التي تعزز بالعدد والكثرة، والشجاعة والكرم، وأن المنافر وقبيلته أفضل القبائل. ومن هنا عاب القرآن هذا الشأن فقال تعالى:

((أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ)) والله لا يحب كل مختال فخور.

طريقة المقاتلة وأدوات القتال:

لقد أسهب الشعر الجاهلي في وصف دقائق الحرب، طرقها وأدواتها وأوقاتها (١٨). وقد كان قتالهم بالكر والفر أحياناً، وقد يتخذون وراءهم حواجز من الطعائن أو الإبل يرجعون إليها، وعرفوا أحياناً الحروب المنظمة. وكانت المبارزة تسبق الحرب في بعض الحالات قال عنترة: (١٩)

سأخرج للبراز خَلِي بالٍ بقلب فُدَّ من زُبِر الحديد

وفي غزوة أحد تقدم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بالراية متحدياً المشركين وخرج إليه أبو سعيد بن أبي طلحة ليبارزه فضربه علي وصرعه (٢٠).

وقد أغاروا بالليل والنهار، وربما كان أكثر الغارات ليلاً والقوم رقود وكانوا يمتنعون عن القتال في الأشهر الحرم وفي ذلك حكمة بالغة في أمة اعتادت شن الغارات، واعتادت السطو والسلب، حيث يتمكن العقلاء من محاولات الصلح حتى لا يسترسلون في التفاني وليتمكن الإنسان من قضاء حاجاته وأمور معاشه.

كان العرب في جاهليتهم يحرصون على أدوات القتال، يحملونها لا تفارقهم وافتخروا بأنواعها، وجودتها، فيها يغيرون، ويثأرون ويغنمون، لقد تحدثوا في شعرهم عن السيوف والرماح والدروع بأنواعها، وعن السهام والقسي بأشكالها، وفاخروا بالخيول الأصيلة، فهذا عنترة يفتخر بأن وساده درعه وسيفه، وبأن مقبله ظهر حصانه: (٢١)

أيا عبل ما كنت لولا هواك قليل الصديق كثير الأعادي

وحقك لازال ظهر الجواد مقبلي وسيفي ودرعي وسادي

ومن أهم وسائلهم الخيول إذ أعزوها إعزازاً عجبياً ، وافتخروا بها لأنها وسيلة الكر والفر ، وعرف العرب بالمحافظة على أنسابها(٢٢) ، وعدم الخلط بين سلالاتها ، وكان إطلاق الأسماء على الخيل عادة معروفة ؛ ليميزوا بين الأصيل والهجين ، وقد ذكر صاحب أنساب الخيل(٢٣) أكثر من مائة فرس من أفراس الجاهلية والإسلام مع نسبتها إلى أصحابها من ذلك أعوج ، كان سيد الخيل المشهورة ، كان لملك من ملوك كندة ، والغرب والوجيه ولاحق والمذهب وكتوم. قال طفيل الغنوي :

بنات الغرب والوجيه ولاحق وأعوج تنمي نسبة المنتسب

ومنها داحس والغبراء ، والسلس فرس لمهل بن ربيعة التغلبي.

وقد ذكرت المفضليات(٢٤) عدداً منها مثل: العرادة للكلبية والرحالة فرس عامر بن الطفيل.. والكلام يطول في إعزاز العرب للخيل والشعر فيها كثير وكان أشرف العرب يخدمونها بأنفسهم، ويفتخرون بكثرة العناية بها فالأعرج المعنى يعجب لأن زوجته تعيب عليه إيثار فرسه الورد عليها باللبن ويقول : إن فرسه أفضل من زوجته ساعة الفزع ووقت الغارة : (٢٥)

أرى أم سهل ما تزال تَفَجَّعُ تلوم ولا أدري علامَ تَوَجَّعُ

تلوم على أن أعطي الورد لِقْحَةً(٢٦) وما تستوي والورد ساعة تفزع

ويلوم عنتره امرأته لاعتراضها على سقائه اللبن وإطعامه الطعام :

لا تذكرني مهري وما أطعمته فيكون جلدك مثل جلد الأجر

إن الغبوق له وأنت مسوءة فتأوهي ما شئت ثم تحوبي(٢٧)

أنذر عنتره زوجته أن يهجرها كأنها جرباء وأصر أن يكون اللبن شراب فرسه في كل مساء وإن حزنت وتألمت.

لقد أكثر الشعراء من وصف الخيل وما ذلك إلا لأنهم أمة جلاذ وكفاح فهي أول عدتهم وهي حصونهم المنيعه(٢٨).

وقد ورد الثناء عليها في القرآن الكريم والحديث الشريف قال تعالى : ((وَمِنْ رَبَّاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)) وفي الحديث : «الخيول معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة».

إن الحياة الحربية، والغارات، جعلت عرب الجاهلية يمجدون الأبطال الشجعان، والفرسان الكماة، حتى كثر الفرسان المشهورون وضربت بهم الأمثال وقد ترجم صاحب بلوغ الأرب لعدد كبير منهم(٢٩).

فربيعة بن مكرم فارس كنانة ، وكان بنو فراس بن كنانة أنجد العرب وفيهم يقول علي -رضى الله عنه- لأهل الكوفة : « مَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ بِالسَّهْمِ الْأَخِيْبِ..ووددت -والله- أن لي بجميعةكم وأنتم مائة ألف ثلاثمائة من بني فراس بن غنم».

وعنتره بن شداد العبسي ، وقد شهد له في حروب داحس والغبراء وأخباره مشهورة أضحت تشبه الأساطير.

وزيد الخيل وهو زيد بن مهلهل الطائي الذي أسلم وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وعامر بن الطفيل فارس بنى عامر وكان عامر من أشهر العرب بأساً ونجدة وأبعدها اسماً كما يذكر ابن الأنباري في شرح المفضليات .
ومنهم عمرو بن معد يكرب ينتهي نسبه إلى كهلان بن سبأ ، ودريد بن الصمة من بني جشم ، وعمرو بن كلثوم صاحب المعلقة المشهورة التغلبي وهو أحد فُتاك العرب وهو الذي قتل عمرو ابن هند الملك .

والحارث بن عباد من فرسان ربيعة المشهورين ، ومهلهل بن ربيعة التغلبي وهو عدي بن ربيعة صاحب حرب البسوس الشهيرة .

ومن طرائف أخبار الحارث بن عباد والمهلهل أن الأول كان قد اعتزل حرب البسوس حتى قتل المهلهل ولده (وقيل ابن أخيه) واسمه بجير ، وقال عندما طعنه بالرمح وقتله : (بؤ بشسع نعل كليب) .

وعندما علم الحارث بذلك غضب ودعا بفرسه النعامة فجزّ ناصيتها وقال : (٣٠)

قرباً مربوط النعامة مني لقتت حرباً وائل عن حيال

لم أكن من جناتها علم الله وإنني بحرّها اليوم صال

وقاد قبائل بكر وقاتل تغلب حتى هرب المهلهل وتفرقت قبائل تغلب .

وكان أول يوم شهده الحارث بن عباد هو يوم تحلاق اللمم ، وفيه أسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه فقال له : دنني على عدي بن ربيعة وأخلي عنك فقال له : عليك العهد بذلك إن دلتك عليه ، قال : نعم ، قال : فأنا عدي فجز ناصيته وتركه وقال فيه :

لهف نفسي على عدى ولم أعرف عدياً إذ أمكنتني اليدان (٣١)

وهذا وفاء نادر ، ورجولة تستحق الإكبار ، وتتضاءل أمامها مواقف الرجال من أتباع الجاهلية الحديثة .

ولم يتركوا وسيلة إلا حاربوا بها حتى الحجارة وكثيراً ما ساعدتهم نساؤهم بها . قال بعضهم :

فإن تمنعوا منا السلاح فعندنا سلاح لنا لا يشتري بالدرهم

جلاميد أملاء الأكف كأنها رؤوس رجال حُلقت بالمواسم (٣٢)

د- الأسرى والسبايا : (٣٣)

للحروب نتائجها المريرة قديماً وحديثاً ، وطالما فخر شعراء الجاهلية بأخذ الأسرى لأنه برهان على النصر ، وسوق النساء والأطفال سبايا حرب ، فالمهلهل يفتخر بأنهم أسروا أعداءهم وشفوا من ذلك الصدور : (٣٤)

فجاءوا يهرعون وهم أسارى نقودهم على رغم الأنوف

وافتخر عمرو بن كلثوم بعودتهم ظافرين معهم الأسلاب والسبايا والأسرى :

فأبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مُصَفِّدِينَا (٣٥)

وقد يسخرون الأسرى عبيداً ، أو يوردونهم حتفهم ، وفي يوم أواراة الأول أسر المنذر بن ماء السماء من بني كنانة أسرى كثيرة ثم أمر بهم فذبحوا على جبل أواراة وأمر بالنساء أن يحرقن (٣٦).

وقد يطلقون الأسير ويمنون عليه بذلك بعد أن يجزوا ناصيته ، وكان حرصهم على جز ناصية الشريف شديداً ذلّة له ، واعتزازاً بالعفو عنه بعد المقدرة ومن أخبارهم أن زيد الخيل أسر عامر بن الطفيل وجز ناصيته ثم خلى سبيله (٣٧) .
كان شعراء الجاهلية يفتخرون بجز الناصية بعد الاحتفاظ بها لإظهارها عند اللزوم مباهاة وافتخاراً ، تقول الخنساء :

جززنا نواصي فرسانهم وكانوا يظنون أن لن تُجَزَّأ

وقالت في أخيها صخر :

رداد عادية في فكاك عانية كضيغم باسل للقرن هصار (٣٨)

وقد يطلق الأسير أسيره جزاء مدحة يسمعوها ، ويؤثرها على الفداء فقد أسر صعصعة بن محمود أحمر بن جندل فبعث إليه سلامة بن جندل أبياتاً منها :
فإن شئت أهدينا ثناء ومدحةً وإن شئت عدينا لكم مائة معاً

فأطلقه أسره وقال : المدحة والثناء أحب إلينا (٣٩).

وكان العرب أحياناً يقدون الأسرى وأكبر قيمة دفعت في الفداء ثلاثمائة بغير دفعتها أم بسطام بن عبد الله فداء لابنها (٣٩) .

وقيل إن الأشعث بن قيس الكندي غزا مذحجاً فأسير وفدى نفسه بألفي بغير (٤١) .
وقد يستولدون السبايا ، ولكن العربية السبية ما كانت لتنسى قومها وإن طال العهد ، ويروى أن عروة بن الورد كان قد أصاب في بعض غاراته امرأة من كنانة ، واتخذها لنفسه فأولدها وحج بها ، ولقيه قومها ، وقالوا : فادنا بصاحبتنا فإننا نكره أن تكون سبية عندك قال : على شريطة أن نخيرها بعد الفداء .. وكان يرى أنها لا تختار عليه ، فرضوا بذلك ، وفادوا بها ، فلما خيروها اختارت قومها ثم قالت : أما إني لا أعلم امرأة ألفت سترأ على خير منك .. ولقد أقمت معك وما يوم يمضي إلا والموت أحب إلي من الحياة فيه ، وذلك أني كنت أسمع المرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة كذا ، وقالت أمة كذا والله لا نظرت في وجه غطفانية فأرجع راشداً وأحسن إلى ولدك (٤٢) .

وقال فيها قصيدة طويلة يتحسر عليها منها:

ولو كالليوم كان عليّ أمري ومَنْ لك بالتدبر في الأمور

إذن لملكك عصمة أم عمرو على ما كان من حَسَكِ الصدور (٤٣)

وكثير من سادات العرب في الجاهلية كانوا أبناء سبايا مثل دريد بن الصمة فأمه ريحانة بنت معد يكره أسرها الصمة ثم تزوجها فأنجبت دريداً وإخوته وهي التي يقول أخوها عمرو في حديث إسارها :

أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوغ
سباها الصمة الجُشمي غصباً كأن بياض غرتها صديع
وحالت دونها فرسان قيس تَكشُفُ عن سواعدها الدروع (٤٤)
وقد تلقي المرأة السبية بنفسها من على ظهر هودجها كما فعلت فاطمة بنت الخرشب
أم الربيع بن زياد العبسي. . عندما أسرت رمت بنفسها على رأسها من البعير فماتت
خوفاً من أن يلحق بنيتها عار .

هـ - الدعوة إلى نبذ الحرب (٤٥) :

إن القتال في الجاهلية يكاد لا يهدأ ، فالأرواح تُزهق والنساء ترمل ، والبيوت تخرب
، والثأر يزيد الحروب اشتعالاً ، في أرض لا تعرف الهدوء ووسط صحراء لا ترحم

والشعر الجاهلي خير مصدر لتصوير هذه المعارك ، وتلك المخاوف والويلات ،
فعامر بن الطفيل يفتخر ببطولته وبطولة قومه ثم يعدد انتصاراتهم : (٤٦)
ونحن صبحنا حي أسماء بالقنا ونحن تركنا حي مرة مأتما
بقرنا الحبالى من شنوءة بعدما خبطن بعنف الريح نهذاً وختعما
ونحن صبحنا حي نجران غارة تبيل حبالاها مخافتنا دما
كانت رعونة الجاهلية تجبر إليها من اعتزل القتال قسراً ، كما حصل في موقف
الحارث بن عباد عندما اعتزل حرب البسوس وقد مرت قصته فيما سبق .
على أن هذا الصخب وذلك الضجيج الذي شمل الحياة بكل مظاهرها لم يمنع
الأصوات القليلة من المناداة بالرجوع إلى حياة الأمن والاستقرار ، ومن المعلوم أن
العرب يقبلون الصلح ويرضون بالدييات إلا بعد تفاقم الأمر ، وبعد أن تأتي الحرب
على الحرث والنسل، أما قبل ذلك فقد كانت سبة وعاراً عندهم .
من المواقف النادرة في مساعي الصلح ، ما قام به هرم بن سنان بن عوف من بني
مرة ، لأنهما تحملا القتلى من عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء التي دامت
أربعين سنة ، وكانت ثلاثة آلاف بعير أدياها في ثلاثة أعوام . . فمدحهما زهير بن
أبي سلمى ، وخذ ذكرهما في معلقته : (٤٧)

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما تبزل ما بين العشيرة بالدم
يميناً لنعم السيدان وُجِدْتُمَا على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر مَنثِم
وقد قلتما: إن ندرك السلم واسعاً بمال ومعروف من القول نسلم
هذه الحروب أتاحت لزهير أن يتأمل الحرب وويلاتها وأن يعظ وينصح ، يقول
في معلقته : (٤٨)

وما الحرب إلا ما علمتم ودقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضريرتموها فتضرم

فتعركم عرك الرحي بثفالها وتلحح كشافاً ثم تحمل فتتئم
فتنتج لكم غلمان أشام كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم
فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم
هذه الأبيات أجاد فيها زهير للتنفير من الحرب ، فيقول : لقد جربتم الحرب وذقتم
ويلاتها ، والحرب لا تلد إلا الحرب لأن العداة تتوارثه الأجيال بعد الأجيال ،
والحرب تلد توأمين ، أي أن شرها يتضاعف ، ولن يكون المولود إلا موتوراً ناقماً
ولن تكون الأجيال المولودة إلا مشائيم ، كأن كلاً منهم أحمر عاد الذي عقر الناقة
فأهلك القوم .. فالإنتاج لن يكون إلا ما تكرهون ، لا كإنتاج وغلة قرى العراق من
الحبوب والدرهم .

ولقد أنصف عنتره العبسي عندما قيل له صف لنا الحرب فقال : أولها شكوى
وأوسطها نجوى ، وآخرها بلوى .

كان الأشراف يتوسطون في الصلح كما عرفنا ، ويحتسبون دماء القتلى من الطرفين
ومن زاد قتلاهم أخذوا ديتهم : للصریح ديته وللحليف ديته وهي نصف دية الصريح
، كما حدث عندما حكمت الأوس والخزرج (في حروب سُمير) ثابت بن المنذر بن
حرام والد حسان بن ثابت -رضي الله عنه-(٤٩) .
وكان تقسيمها ألفاً للملوك ومائة للصریح وخمسين للحليف ، وكانت تقدر بالإبل .
للبحث صلة

الهوامش :

- ١ - العصر الجاهلي : شوقي ضيف .
- ٢ - الأصمعيات : ص ١٩٩ (والظرفاء : موضع المعركة) - التنق : الممتلى - يفوق :
- أي أخذه البهر .
- ٣ - الأصمعيات رقم القصيدة (٧٠) ص ٢٠٤ - أباءه به : قتله به والبواء : الكفاء -
المعاطس : الأنوف .
- ٤ - العصر الجاهلي : شوقي ضيف ص ٢٠٢ .
- ٥ - المفضل الضبي ص ٦٤ رقم القصيدة (١٢) .
- ٦ - الحيوان للجاحظ وانظر العصر الجاهلي : شوقي ضيف .
- ٧ - المفضليات ص ٣٨٦ رقم (١١٧) - العضب : السيف القاطع - الصقيل :
- المصقول الحاد - العسول : اللين المضطرب للينه .
- ٨ - الحيوان : ٤ / ٣٧٩ .
- ٩ - ديوان الخنساء - (العوار : الرمد - مدرار : كثير - خناس : الخنساء - مقطار :
- ضعيفة - العلم : الجبل) .

- ١٠- الأصمعيات : ص ١٨٥ رقم (٦٥) - الإقتار : قلة المال وضيق العيش . العدم والإعدام : الفقر - الهام : ج هامة وكانوا يزعمون أن عظام الميت أو روحه تعيدها هامة فتطير فحرم ذلك الإسلام ونفاه .
- ١١- الفروسية في الشعر الجاهلي : ٢٦٥ وما بعدها.
- ١٢- لويس شيخو : شعراء النصرانية ١٦٦/١ .
- ١٣- المصدر السابق .
- ١٤- بلوغ الأرب للألوسي ٢٨٨/١ .
- ١٥- انظر بلوغ الأرب للألوسي ٢٧٨/١ - ٣٠٧ .
- ١٦- والجمل الأدرم : الذي سقطت أسنانه .
- ١٧- بلوغ الأرب للألوسي : ٢٧٨/١ - ٣٠٧ .
- ١٨- انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي من ٢٣٢ حتى ص ٢٦٤ .
- ١٩- الديوان ص ٥٤ - قَدّ : قطع - زبر الحديد : قطع الحديد .
- ٢٠- السيرة النبوية لابن هشام ١٩/٣ .
- ٢١- ديوان عنتره : ص ٥٣ .
- ٢٢- الفروسية في الشعر الجاهلي : ص ١٣٩ وما بعدها وانظر بلوغ الأرب : خيل العرب المشهورة ص ١٠٤ وما بعدها .
- ٢٣- ابن الكلبي : أنساب الخيل .
- ٢٤- المفضليات ص ٣٢-٣٣ ، ٣٧ .
- ٢٥- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣٤٩/١ نقلاً عن الحياة العربية .
- ٢٦- لقحة : لبن الناقة .
- ٢٧- ديوان عنتره: ١٩ - وانظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي. والتحوب: التوجع.
- ٢٨- انظر معلقة امرئ القيس في وصف الحصان والأصمعيات رقم ٣٩ .
- ٢٩- بلوغ الأرب : الألوسي من ص ١٢٤ - ١٦٠ الجزء الثاني .
- ٣٠- الأصمعيات رقم ١٧ - ولقحت الحرب أي هاجت بعد سكون .
- ٣١- بلوغ الأرب : ١٤٧/٢ ، ١٥٦ .
- ٣٢- شرح الحماسة للمرزوقي : ١١٨/١ والمواسم : مواسم الحج .
- ٣٣- انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي : الحوفي من (٢٦٤ - ٢٧٢) .
- ٣٤- شعراء النصرانية ١٨٠/٢ .
- ٣٥- معلقته : تبريزي ص ٢٨٠ .
- ٣٦- أيام العرب : ٩٩ يوم أواره الأول .
- ٣٧- الأغاني ٥١/١٦ .
- ٣٨- الديوان : ١٤٥ ، ١٣٦ .

- ٣٩- ديوان سلامة بن جندل : ص ٢٢ نقلاً عن الحياة العربية .
 ٤٠- أيام العرب : ص ٢٠٠ .
 ٤١- الميداني في مجمع الأمثال ١١/٢ .
 ٤٢- عن الشعر والشعراء ٢/٢، ٦٨٠ .
 ٤٣- المراد بمسك الصدور : الغل والعداوة .
 ٤٤- الأغاني : ٢/٩ ساسي .
 ٤٥- الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص ٢٧٢ وما بعدها . الفروسية للقيسي ص ١٠٦ وما بعدها .
 ٤٦- ديوان عامر بن الطفيل : ١١٧ عن الفروسية في الشعر الجاهلي (وحي أسماء : يعني فزارة - وشنوءة ونهد وخيثم من القبائل اليمينية، وتبيل : أي ترمي أولادها من مخافتنا) .
 ٤٧- شرح القصائد العشر للتبريزي ص ١٣٥ .
 (١- تبزل : تشقق)
 ٢- أي نعم السيدان وجدتما لأمر أبرمتماه أو لم تبرماه ولم تحكماه أي على كل حال من شدة الأمر وسهولته .
 ٣- منشم : امرأة عطارة تحالف قوم فأدخلوا أيديهم في عطرها ليتحرموا به ثم خرجوا إلى الحرب فقتلوا جميعاً فتشاءمت العرب بها) .
 ٤٨- المصدر السابق ص ١٤٠ - ١٤٢ .
 ٤٩- أيام العرب : يوم سمير : ص ٦٦ .

مفهوم السببية عند أهل السنة

طارق عبد الحليم

تعتمد الأمم الناهضة في بناء ذاتها، وشحذ قوتها، على ركيزتين أساسيتين أولهما: صحة المفاهيم التي تبني عليها تلك النهضة، والثانية: إخلاص ومصادقية الفئة التي تحمل عبء النهوض بالأمة والسير بها في طريق الرقي والتقدم المادي والسلوكي جميعاً .
 وعلى أساس من صحة المفهوم، ووضوح الفكرة، تصح الوجهة وتتضح معالم الطريق، وتكون الأمة على بينة من غايتها وأهدافها بلا زيغ ولا انحراف كما أن زاد الإيمان والإخلاص لدى الرجال القائمين على النهضة يُعدّ الوقود الدافع للحركة والاندفاع بها نحو الهدف، واجتياز العتبات والمحن التي تعرقل تلك المسيرة .

وحين نسبر الواقع الإسلامي المعاصر بهذين المقياسين الموضوعيين نشعر - برغم تباشير النهضة الإسلامية اللائحة في الأفق بفضل الله تعالى ومنه - بألم يعتصر الفؤاد اعتصاراً، لما نجده من اضطراب في المفاهيم، واختلاط في الفكر، وتشتت في الجهد وتفرق عن الصف، ثم انهزامية منكرة في بعض النفوس، يقابلها حماس متهور غير مدروس لدى البعض الآخر

أسباب عديدة أدت بالواقع الإسلامي إلى ما آل إليه من حال، منها ما يتعلق بصحة المفهوم ، ومنها ما يتعلق بعزائم الرجال .

ولسنا بصدد الحديث - في هذا المقال - عن الأمر الثاني المتعلق بالرجال ، فإنه أمر وعر المسالك ، خفيّ الدروب ، متعدد الشعاب ، له ظاهر يفضح مكنون الباطن ، وله باطن يشرح جليّ الظاهر ، وإن كانت لنا إليه رجعة في موضع مستقل نطل فيه إطلالة قصيرة على ظواهر الأقوال ، وواقع الأفعال ، ودلالات الأمرين على العزائم . وإنما سيقنصر بحثنا على بعض المفاهيم التي أصابها الخلط والاضطراب في الفكر الإسلامي ، وانعكاس ذلك انعكاساً مباشراً على الواقع الإسلامي عموماً ، وعلى مسار النهضة الإسلامية المرتقبة خصوصاً ، جاهدين في تصحيح تلك المفاهيم ، وتوجيهها الوجهة الصحيحة التي تعين على بلوغ الهدف وإدراك الغاية بعون الله تعالى .

ومن تلك المفاهيم - بل من أهمها وأصقها بالواقع الإسلامي على الإطلاق - مفهوم السببية - أو العلية كما يطلق عليه باحثو الأصول - الذي ينتظم بشموله السنن الطبيعية والاجتماعية للحياة والأحياء على السواء ، والذي يبحث بكلمات موجزات - في ترتيب النتائج على أسبابها ، وارتباط العلة بمعلولها ، سواء في مجال المادة الجامدة وحركاتها ، أو أفعال الأحياء وتصرفاتهم ، كما يتناول - بشكل أساسي - فكرة التلازم بين العلة والمعلول عند اكتمال الأسباب ، وعوامل تخلف النتيجة في حالات معينة وما يتعلق بتصوير مفهوم خصائص المادة وطبائعها ، وقيام الإرادة الإنسانية واستقلالها ومدى تدخلها في ترتب النتائج على الأسباب التي أدت إليها . وقد اعتمد مفهوم السببية على عدد من القضايا والأفكار التي تعتبر روافد لتطور ذلك المفهوم ، كمسألة خلق الأفعال ، ومفهوم القضاء والقدر ، ومجال الإرادة الإنسانية ، وقضية التحسين والتقبيح كما أن ذلك المفهوم قد ارتبط بأمر يعتبر غاية في الأهمية في فهم العقيدة ذاتها من جهة ، وفي منهج استقاء الأحكام الشرعية من النصوص من جهة أخرى ، ألا وهو مبدأ تعليل الأحكام الإلهية ، أو - بعبارة أخرى - وجود الحكمة في أفعال الله وأحكامه ، وأنه سبحانه لا يفعل إلا لحكمة بالغة يقتضيها علمه وعدله وحكمته ، مما يضطرنا إلى أن نمسّ تلك القضايا مساً رقيقاً موجزاً ، متحاشين الدخول في التفاصيل والتفريعات التي كادت - بسبب علم الكلام - أن لا تنتهي .

ولسنا في هذا المقال بمؤرخين لفترة معينة من الزمان ، أو لفرقة محددة من الفرق ، إنما ستجدنا - كما هو الأنسب لغرضنا - قاصّين آثار الفكرة منذ نشأتها وتطورها عبر

مساحة من الزمان تمتد منذ نهاية القرن الأول الهجري ، وحتى نهاية القرن الرابع الهجري ، من خلال آراء الفرق التي أطلت برأسها بعد انشعاب الآراء ، وتفرق الأهواء ، كالجبرية ، والقدرية المعتزلة ، ثم الصوفية التي حازت قصب السبق في إهدار قيمة اتخاذ الأسباب تذرغاً بالتوكل ، ومذاهب الأشاعرة الذين قابلوا غلو المعتزلة بغلو مقابل في نفي العلة والسبب ، ثم توسط أهل السنة في ذلك الأمر كله .

القدرية وخلق الأفعال :

في بداية الربع الأخير من القرن الأول الهجري كان (معبد الجهني) (١) ينتقل بين العراق والحجاز مروّجاً لبدعته - التي كان أول من أحدثها في الإسلام - وهي نفيه للقدر ، وإنكاره للقضاء الإلهي بزعم أن الله سبحانه لا يقدر على الناس ما ينهائم عنه ، ولا يقضي عليهم بما يحاسبهم عليه . وعن معبدٍ هذا أخذ (غيلان الدمشقي) (٢) وراح ينشر تلك الآراء التي ذهب ضحيتها حين قتله هشام بن عبد الملك عليها بدمشق .

وعن هذين انتقلت بدعة القول بنفي القدر إلى المعتزلة وظهرت كأصل من أصولهم الخمسة (٣) منذ زمن (واصل ابن عطاء) (٤) (وعمر بن عبيد) (٥) وحتى (القاضي عبد الجبار) (٦) المعدود في الطبقة الحادية عشرة منهم - وقد أطلقت المعتزلة على أصلهم ذاك (العدل) واتفقوا على أن : (العبد قادر خالق لأفعاله ، خيرها وشرها ، مستحق على ما يفعله ثواباً أو عقاباً في الدار الآخرة ، والرب تعالى منزّه عن أن يضاف إليه شر أو ظلم ، وفعل هو كفر ومعصية ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً ولو خلق العدل كان عادلاً) (٧) .

وقد تطور ذلك القول بعدم خلق الله سبحانه لأفعال العباد ، وأنها لا تدخل تحت المشيئة الإلهية ، بل هي بمحض الإرادة والاختيار الإنساني ، ومن خلق العبد نفسه ، إلى القول بعدم قدرة الله تعالى على خلق الشر ، أو الأفعال الموصوفة بالمعصية والكفر من العباد كما ذهب إليه (النظام المعتزلي) (٨) وفي مقابل تلك الآراء التي بلغت الغاية في إنكار عموم المشيئة الإلهية ، وقدرة الله سبحانه وخلق له لكافة الموجودات ، والتي جعلت العبد خالقاً مستقلاً لأفعاله تحت دعوى الحرية الإنسانية ، ومنطقية الثواب والعقاب ، قام (الجهنم بن صفوان) (٩) في أوائل القرن الثاني الهجري ينادي بآراء تقع منها على طرف النقيض ، فزعم أن العبد لا دخل له في أفعاله ، ولا اختيار ولا استطاعة ، بل هي فعل الله على الحقيقة والإنسان مجبور عليها ، كأفعال الجمادات سواء بسواء ، قال : (إن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور في أفعاله ، ولا قدرة ولا إرادة ولا اختيار . وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما بخلق في سائر الجمادات ، وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات ، كما قال أثمرت الشجرة وجرى الماء ،

وتحرك القدرُ ، وطلعت الشمس ، وغربت . . . والثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال كلها جبر(١٠).

وفي منتصف القرن الثاني الهجري أطلق ضرار بن عمرو - وهو رأس الضرارية المعدودة لدى كتاب الفرق من الجهمية المجبرة - القول بأن الله سبحانه خالق لأفعال العباد حقيقة (وأنها مكتسبة لهمم)(١١) ، وكان هذا القول إرهاباً بظهور مذهب ثالث - على يدي أبي الحسن الأشعري في منتصف القرن الثالث كان أوسع انتشاراً وأعمق تأثيراً من سابقه - الجبرية والمعتزلة .

الأشاعرة وخلق الأفعال :

رأى الأشعري ما ساد بين المعتزلة من آراء أدت إلى إهدار المشيئة الإلهية في سبيل إثبات العدل الإلهي ، بل إنه عاش ما يقرب من أربعين عاماً داعياً لذلك المذهب الاعتزالي ، وما ضاد ذلك لدى الجبرية من إهدار للعدل في سبيل المشيئة الإلهية المطلقة ، فاختر القول (بالكسب) الذي رده من قبله ضرار . ابن عمرو من الجبرية ، وأن الله سبحانه خالق لأفعال العباد ، وهم (يكتسبونها) !.

ولو أخذنا في استعراض آراء الأشاعرة في معنى (الكسب) لوجدنا اضطراباً شديداً في تحديد معناه ، مما ينبئ بأنه قد وضع أصلاً كمجرد اسم لا يحمل معنى معيناً مقصوداً ، ثم حاول كلُّ أن يجد له حداً وينحل له معنى ، حسب ما يؤديه إليه نظره ، فقد ذهب الأشعري - كما رواه عنه الشهرستاني في الملل والنحل - إلى التفرقة بين أفعال العبد الاضطرارية كالرعدة والرعشة ، وبين أفعاله الاختيارية ، وبناء عليه فقد عرف (المكتسب) أي الفعل - بأنه هو (المقدور بالقدرة الحادثة) (١٢) أي : الفعل هو ما يفعله المرء بقدرته المخلوقة له . ثم عاد فنقض ما قرره مرة أخرى حيث قال : إنه لا تأثير للقدرة الحادثة - أي التي خلقها الله في العبد - في إحداث الفعل (والله سبحانه أجرى سنته بأن يخلق عقيب القدرة الحادثة - أي المخلوقة للعبد - أو تحتها أو معها : الفعل الحاصل إذا أراده العبد وتجرد له ، وسمى هذا الفعل كسباً)(١٣) .

وفي هذا النص ينقض الشهرستاني ما سبق نقله عن الأشعري إذ أنه يقرر أن العبد لا أثر لقدرته - وإن أقر أن الله سبحانه يخلق له قدرة - على أي فعل وأن الفعل إنما يخلقه الله عقب خلقه للقدرة في العبد وليس مسبباً عنها ، ثم ننتقل إلى آراء القاضي (أبي بكر الباقلاني) (١٤) ، فنرى أنه مع تقريره أن القدرة التي يخلقها الله سبحانه للعبد لا دخل لها في إيجاد الفعل ، إلا أن (كون الفعل حاصلًا بالقدرة الحادثة أو تحتها ، نسبة خاصة تسمى ذلك (كسباً)(١٥) ، ويحاول ابن القيم أن ينفذ إلى معنى لذلك الأمر الذي هو (الكسب) عند الباقلاني فيقرر أن مقصد القاضي هو (أن القدرة التي خلقها الله تعالى للعبد - وإن لم تؤثر في الفعل - إلا أنها مؤثرة في صفة من صفاته ، وتلك الصفة تسمى كسباً ، وهي متعلِّق الأمر والنهي ، والثواب والعقاب)(١٦) .

لكنه يفند ذلك الزعم ويبين تفاهته قوله: إن تلك الصفة التي يكون بها الثواب والعقاب، إما أنها داخلة تحت القدرة الإنسانية ، وهو ما نفاه القاضي ؛ أن يكون للقدرة الإنسانية أي دخل في الفعل أو أنها لا تدخل تحت القدرة ، فكأنه (لم يعد للعبد اختيار ولا فعل وكسب البتة) وهو عين القول بالجبر (١٧).

والإمام (أبو المعالي الجويني) (١٨) - وهو من أكابر الأشاعرة - قد أنكر نظرية (الكسب) قائلاً : إنه لا معنى له عند التحقيق بل إنه مجرد (اسم محض ولقب مجرد من غير تحصيل معنى ، وذلك أن قائلاً لو قال : العبد يكتسب وأثر قدرته الاكتساب ، والرب سبحانه خالق لما العبد مكتسباً له ، قيل له : فما الكسب وما معناه؟! (١٩) . ثم يخرج الجويني -في النظامية- بقول قد أصاب فيه وأجاد -كما علق عليها بن القيم- وهو أن الله سبحانه يخلق للعبد قدرة ، وهذه القدرة مؤثرة في إيجاد الفعل عند اختيار العبد بإقرار الله سبحانه -أي خلقه لتلك القدرة- كما سنرى في حديثنا عن مذهب أهل السنة والجماعة في المسألة

والحق أن (الكسب) الذي ذهب إليه الأشاعرة ، لا معنى له ولا حد ، وصدق من قال : إن محالات الكلام ثلاثة : كسب الأشعري ، وأحوال أبي هاشم ، وطفرة النظام !.

مسألة التحسين والتقبيح :

ثم إنه كان من تفرعات مذهب المعتزلة - الذي يخرج بالعقل عن دوره المرسوم وحده المعلوم - أن العقل يمكنه أن يدرك الحسن والقبح في الأشياء والأفعال عامة مستقلاً عن الشرع ، فهو يدرك - وحده - قبح الزنى وشرب الخمر ، كما يدرك - وحده - حسن إنقاذ الغرقى وبذل الصدقة ، ذلك أن تلك الصفات -الحسنة والسيئة - صفات ذاتية لا تحتاج في تعريفها إلى وساطة رسل أو وحي من السماء ، حتى الإيمان بالله تعالى وشكره على نعمائه يدرك بالعقل قبل التكليف ، والإنسان محاسب عليه قبل ورود الشرائع (٢٠).

ولم يكن من الأشاعرة - إزاء الغلو الاعتزالي - إلا أن قالوا بالتحسين والتقبيح الشرعيين ، فأنكروا كل دور للعقل في إدراك الحسن والقبح في الأفعال والأشياء ، وذهبوا إلى أن الأفعال كلها مستوية في أصلها - أقبح القبائح وأحسن الحسنات - ولا فرق بينها إلا بمجرد الأمر والنهي الإلهي - فلو أن الله تعالى أمرنا بقتل الأنبياء وارتكاب الزنا لكان ذلك حسناً، ولو نهينا عن الخير والعدل لكان الخير والعدل سيئاً إذ أن الأعمال لا تحمل في ذاتها خيراً ولا شراً ، والعقل إذن -لا يستقل- بل لا يدرك أصلاً - الخير أو الشر والحسن أو القبح (٢١).

وكان مما حداهم إلى تأصيل ذلك الأصل الفاسد هو خلطهم بين الإرادة والمحبة الإلهية ، فقد اعتقدوا أن الله سبحانه إن أراد أمراً كان ذلك الأمر محبوباً له ، مرضياً عنده ، وإن كره أمراً لم يشأه ، ولم يخلقه أصلاً ؛ إذ كيف يخلق أمراً ويشأه وهو يكرهه ويبغضه؟! أفيكون أمراً في كون الله مكروهاً لله مفعولاً برغم مشيئته؟! .

هكذا تصوروا المسألة حين خلطوا بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية - كما سنرى في عرضنا لآراء أهل السنة - ومن هنا اضطروا إلى نفي القبح والحسن في الأفعال والأشياء كلية إذ أن العقل العادي - الذي لم تغشاه غواشي الشبهات - لو تأمل الأفعال والأشياء لأدرك فيها حسناً وقبحاً هو عين ما كلفته به الشرائع ، وأوجبه عليه الرسالات ، وهي حقيقة لم يتمكنوا من المكابرة فيها ، إنما - لما لم تضطرد على أصلهم في عدم التفرقة بين الإرادة الشرعية والكونية - ذهبوا إلى ذلك الرأي الشاذ في نفي صفة الحسن والقبح في الأشياء والأفعال نفيًا مطلقاً ، وجعلوا العقل عاجزاً عن إدراك الخير والشر فيها.

يقول ابن القيم في شرح ذلك الأمر :

(ومن هذا الأصل الباطل نشأ قولهم باستواء الأفعال بالنسبة إلى الرب سبحانه وأنها لا تنقسم في نفسها إلى حسن وقبيح، فلا فرق بالنسبة إليه سبحانه بين الشكر والكفر، ولذلك قالوا : لا يجب شكره على نعمه عقلاً ، فعن هذا الأصل قالوا: إن مشيئته هي عين محبته، وأن كل ما شاءه فهو محبوب له، ومرضي له ومصطفى ومختار ، فلم يمكنهم بعد تأصيل هذا الأصل أن يقولوا إنه يبغض الأعيان والأفعال التي خلقها، ويحب بعضها، بل كل ما فعله وخلقها فهو محبوب له ، والمكروه المبغوض لم يشأه ، ولم يخلقه ، وإنما أصلوا هذا الأصل محافظة منهم على القدر، فحثوا به على الشرع والقدر، والتزموا لأجله لوازم شوشوا بها على القدر والحكمة وكابروا لأجلها صريح العقل) (٢٢) .

الخطأ -إذن- قد نشأ وتطور لدى الأشاعرة في هذا الأمر نتيجة خلطهم في مفهوم الإرادة الإلهية من جهة ، وفرارهم من غلو المعتزلة في مسألة الحسن والقبح العقلي إلى غلو مقابل من جهة أخرى .

ثمة أمر آخر كان له أثر في توجيه النظرية ، الأشعرية عن السببية ، ذلك هو ما ذهبت إليه المعتزلة - والمعتزلة مرة أخرى! - إلى أن الله تعالى لا يفعل إلا الأصلاح لعباده ، بل إنه يجب عليه فعل الأصلاح لهم ، مراعاة لمصالحهم ، وحفاظاً عليهم من المفساد بل إن منهم من تعدى ذلك إلى عدم قدرته -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً- على فعل الشر أو المفساد التي يتوهمونها كما ذهب إليه النظام المعتزلي ، فإن ذلك مقتضى عدله ، ومسوّغ ثوابه وعقابه ، والعباد هم الفاعلون الخالقون لتلك الشرور والمفساد ، وهي خارجة عن مشيئته سبحانه كما بينا ، إذ أن (الباري تعالى حكيم عادل ، لا يجوز أن يضاف إليه شر ولا ظلم ، ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمر ، ويحتم عليهم شيئاً ثم يجازيهم عليه)(٢٣) .

وكما رأينا من قبل، فقد فرت الأشاعرة من النقيض إلى النقيض، فنفوا أن يفعل الله سبحانه ما فيه مصلحة العباد والله سبحانه لا يسأل عما يفعل ، إذ كيف يتوهم العقل أن يفعل لمصلحة أو يترك لمفسدة ، والله سبحانه يفعل من واقع المشيئة

المطلقة المجردة عن المصلحة، أو المفتقرة إلى علة في أفعالها، فهو (لا يفعل شيئاً لشيء ، ولا يأمر لحكمة ، ولا جعل شيئاً سبباً لغيره ، وما ثم إلا مشيئة محضة ، وقدرة ترجح مثلاً على مثل بلا سبب و لا علة) (٢٤) .
ثم لا نعفل الإشارة إلى أمر قد كان له أثره في ذلك المنهج الذي انتهجه الأشاعرة في مناقضة المنهج الاعتزالي ، ذلك أن الطبيعة البشرية تميل إلى التطرف ما لم تدرکها رحمة الله تعالى ، والهروب من التطرف قد يلقي بصاحبه إلى التطرف المقابل ما لم تضبط حركته بضوابط تهديه إلى الوسط الأعدل . وقد عاش إمام الأشاعرة الأول (أبو الحسن الأشعري) معظم سني حياته معتزلياً ينافح عن عقيدة الاعتزال ، ولاشك أن لهذا الأمر صلة مؤكدة بالاتجاه الفكري الذي سلكه فيما بعد، إذ دفعه دفعاً إلى تطرف مقابل في مسألة خلق الأفعال ومفهوم السببية وما حولها كما بينا ، كما أنه من جهة أخرى- قد صاحبه أثر اعتزالي في بعض آرائه الأخرى ، وإن لم تكن محلاً لدراستنا الحاضرة .

و حين نصل إلى تلك النقطة من البحث ، فإننا نكون قد أشرفنا على لب الفكرة الرئيسية التي نقصد إليها منه ، وهي عرض لمفهوم السببية الذي كان لانحرافه عن وجه الحق أثر بالغ في فكر المسلمين، وبالتالي في واقعهم الممتد عبر قرون التخلف والتقليد، وحتى عصرنا الحاضر الذي هو -في الحقيقة- محط اهتمامنا ، ومحل دراستنا، ليرتبط تقويم الفكرة وتوجيهها بإصلاح الواقع وتغييره، وهو ما سنوالي عرضه في البقية الباقية من صفحات المقال في العدد المقبل إن شاء الله تعالى .
(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

الْوَهَّابُ))

[آل عمران: ٨]

الهوامش :

- ١ - معبد بن خالد الجهني البصريّ : أول من ابتدع القول بالقدر وأخذه عن نصراني اسمه (سوسن) بالعراق حسب ما رواه الأوزاعي ، اختلف فيمن قتله ، فقيل الحجاج لخروجه مع ابن الأشعث وقيل عبد الملك بن مروان حوالي عام ٨٠ هـ أو بعدها .
تهذيب التهذيب ٢٢٥/١٠ .
- ٢ - غيلان بن مسلم الدمشقي ، أخذ عن معبد ، وقتله هشام بن عبد الملك لبدعته .
الأعلام ١٢٤/٥ .
- ٣ - وهي : التوحيد (نفي الصفات) ، العدل (نفي القدر) ، المنزلة بين المنزلتين .
الوعد والوعيد ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- ٤ - واصل بن عطاء الغزالي : ولد بالمدينة عام ٨٠ هـ ، وكان رأس المعتزلة لما اعتزل حلقة الحسن البصري ت ١٣١ هـ ، لسان الميزان ٢١٤/٦ ، الأعلام للزركلي ١٠٨/ ٨ .

- ٥ - عمرو بن عبيد بن باب البصري : ولد بالمدينة عام ٨٠ هـ وصحب واصلاً ، واعتزل معه حلقة الحسن البصري ، وعرف عنه الورع والعبادة ، مع قوله ببدعة القدر وسب الصحابة وسائر أقوال الاعتزال ، توفي في ١٤٢ هـ الأعلام ٨١/٥ ، وفيات الأعيان ٣٨٤/١ .
- ٦ - عبد الجبار بن أحمد ، القاضي الهمداني ، ولد حوالي ٣٢٠ هـ ، برع في الفقه والحديث ، وانتحل مذهب الأشاعرة فترة ثم انتقل إلى الاعتزال ، توفي بالرّي عام ٤١٥ هـ الأعلام ٢٧٣/٣ ، تاريخ بغداد ١١٣/١١ .
- ٧ - الممل والنحل للشهرستاني ٤٥/١ .
- ٨ - إبراهيم بن سيّار النظام : شيخ الجاحظ : عرف عنه الذكاء ، واطلع على كتب الفلاسفة والدهريين ، وقد ابتدع في الاعتزال أقوال لم يسبق إليها كقوله بالطرفة ، وعدم قدرة الله سبحانه على فعل الجور توفي بين ٢٢١ هـ ، ٢٢٣ هـ . طبقات المعتزلة لابن المرتضى ٤٩/ ، الفرق بين الفرق للبغدادي ١٣١/ .
- ٩ - جهم بن صفوان الراسبي : كاتب الحارث بين سريج ، تتلمذ للجد بن درهم ، وقال عنه الذهبي : الضال المبتدع ، رأس الجهمية (تذكرة الحفاظ) . أول من قال بالإجبار في الأعمال . (الفرق البغدادي) ٢١١/ .
- ١٠ - الممل والنحل للشهرستاني ٨٧/١ .
- ١١ - الشهرستاني ٩٠/١ ، والفرق للبغدادي ٢١٣/ .
- ١٢ - الشهرستاني ٩٦/١ .
- ١٣ - الشهرستاني ٩٧/١ .
- ١٤ - محمد بن الطيب بن محمد ، أبو بكر الباقلاني ، القاضي ، ولد بالبصرة ، وسكن بغداد ، وتوفي بها عام ٤٠٣ هـ ، وكان غزير الإنتاج ، له من التصانيف المشهورة التمهيد ، والتقريب والإرشاد ، المقنع في أصول الفقه ، وكان مالكي المذهب ، أشعري العقيدة ، مقدماً عندهم فيها . الأعلام ١٧٦/٦ ، تاريخ بغداد ٣٧٩/٥ .
- ١٥ - الشهرستاني ٩٧/١ .
- ١٦ - شفاء العليل لابن القيم ٤٩/ .
- ١٧ - شفاء العليل/ ٥٠٠ .
- ١٨ - عبد الملك بن عبد الله الجويني ، أبو معالي ، ولد ببلدة نيسابور عام ٤١٣ هـ وتلقى العلم على المذهب الشافعي من والده الملقب ركن الإسلام ونبغ وناظر العلماء ، ثم توجه لمكة والمدينة حيث جاور بهما أربع سنوات وعاد بعدها إلى نيسابور حيث أقام له نظام الملك المدرسة النظامية ليدرس فيها ، واستمر على ذلك عشرين عاماً حتى وفاته -رحمه الله تعالى - في ٤٧٨ هـ ، وكان عالماً جليلاً له مؤلفات شهيرة

- كالغياثي ، والبرهان في أصول الفقه ، لولا انتسابه إلى المذهب الأشعري في بعض مسائل الصفات وغيرها . مذاهب الإسلاميين / ٦٧٩ وبعدها .
- ١٩ - شفاء العليل لابن القيم / ١٢٣ ينقل عن النظامية لإمام الحرمين .
- ٢٠ - الشهرستاني / ٤٥ .
- ٢١ - الشهرستاني / ٤٢ .
- ٢٢ - شفاء العليل / ١٢٧ . الشهرستاني / ١٠١ .
- ٢٣ - الشهرستاني / ٤٦، ٤٧ .
- ٢٤ - البغدادي ، الفرق بين الفرق .

من أقوالهم

إن الإيمان بالله هو نقطة التحول في حياة البشرية من العبودية لشتى القوى وشتى الأشياء، وشتى الاعتبارات إلى عبودية واحدة لله تحرر بها النفس من كل عبودية وهي نقطة التحول كذلك من الفوضى إلى النظام، ومن التيه إلى القصد، ومن التفكك إلى وحدة الاتجاه.

سيد قطب

إذا أعجب المرء بنفسه عمي عن نقائصها، فلا يسعى في إزالتها، ولهي عن الفضائل فلا يسعى في اكتسابها، فعاش ولا أخلاق له ، مصدرًا لكل شر ، بعيداً عن كل خير .

ابن باديس

... إن لم يكن البحر فلا تنتظر اللؤلؤ ، وإن لم يكن النجم فلا تنتظر الشعاع وإن لم تكن شجرة الورد فلا تنتظر الورد ، وإن لم يكن الكاتب البياني فلا تنتظر الأدب .

مصطفى صادق الرافعي

من مشكاة النبوة

منصور الأحمد

عن ابن شهاب ، أن عروة بن الزبير حدثه أن عائشة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم - قالت : ألا يعجبك أبو هريرة؟! جاء فجلس إلى جانب حجرتي ، يحدث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يُسمِعني ذلك ، وكنت أُسبِّح ، فقام قبل أن أقضي سُبْحتي ، ولو أدركته لرددت عليه ، أن رسول - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يسرد الحديث مثل سردكم) .

أبو داود ، باب سرد الحديث

من كتاب العلم من سننه ٣/٣٢٠ .

لم يعرف تاريخ الدعوات شخصاً بعيد التأثير في أمته ؛ كالرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ولم نعرف أن أحداً استطاع أن يؤثر في كل جانب من جوانب حياة أمة من الأمم كما أثر محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - في أمته ، فقد كان المثل الأعلى في كل شيء ، وكان القدوة الكاملة في كل سلوك سواء كان ذلك في حياته العامة أو الخاصة .

ومع أن حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كلها تشكل القدوة للمسلمين ، لكن أكثر جوانبها أهمية هو ما يختص بالدعوة ، وما يتعلق بالتبليغ .

ولقد حفظت لنا السيرة النبوية هذا الجانب من حياة نبينا ونشاطه أوضح ما يكون الحفظ .

وإنني لا أستطيع - ولا أدعي - في هذه العجالة أن أرسم صورة كاملة لشخصية النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يدعو الناس ويبين لهم ، ويبلغهم ما أوحى إليه ، فهي صورة ممتدة متراحة عبر السنة النبوية غنية ، ممتلئة بالمعاني السامية تظل أية صورة منقولة من عالم الواقع أو الخيال بعيدة عن أن تقارن بها ، فضلاً عن أن تقاربها .

ومن أبرز سمات الداعية في شخصية النبي - صلى الله عليه وسلم - سمتان رئيسيتان هما:

١- الحرص على إفادة الناس من أقرب طريق وأوضحه .

٢- والبعد عن التكلف والافتعال .

هذان اثنان من كبار الصحابة ، ومن أكثرهم رواية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبو هريرة ، وعائشة ، رضي الله عنهما . فلننظر إلى واحد منهما ، في تأثره بجانب الدعوة من شخصية النبي - صلى الله عليه وسلم - . لقد لازم أبو هريرة النبي عليه الصلاة والسلام ملازمة تامة ، منذ وفوده على النبي - صلى الله عليه وسلم - مسلماً ، في السنة السابعة من الهجرة ، وقد حرص - رضي الله عنه - على الاستزادة من العلم ، ولهذا لم يشغل نفسه خلال معاصرته لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشيءٍ ما خلا العلم والحفظ عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فلم يشغله الصفاق في الأسواق (١) كما عبر هو مرة حين ليم على كثرة تحديده ، لذلك فقد حفظ أبو هريرة عن رسول - صلى الله عليه وسلم - كثيراً وكان أكثر الصحابة حديثاً عنه - صلى الله عليه وسلم - .

وقد كان حريصاً - رضي الله عنه - أن يبلغ ما سمع من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الناس ، أداءً للأمانة ، وقيامه بواجب الدعوة إلى الله ، كما فهمها من قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

«نظر الله امرءاً سمع منا شيئاً ، فبلغه كما سمعه ، فربُّ مبلغٍ أوعى من سامعٍ»
(الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح) .
«من سئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار» (أبو داود والترمذي ،
وقال : حديث حسن) .
وقوله : «من تعلم علماً مما يُبتغى به وجهُ الله عز وجل ، لا يتعلمه إلا ليصيب به
عَرَضاً من الدنيا ، لم يجد رائحة الجنة يوم القيامة» (رواه أبو داود بإسناد صحيح) .
وأمام مسؤولية أداء الأمانة ، وتبليغها ببيضاء نقية ، والحرص على وصل الناس
الذين لم يسعدوا برؤية النبي - صلى الله عليه وسلم - به .
فقد كان ربما حدث بأكثر من حديث في مجلس واحد ، وفي أحد هذه المجالس سمعته
أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- التي ذكرها هذا المجلس من أبي هريرة
بجانب من شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - الداعية . وأم المؤمنين حرية أن
تكون من أكثر الناس خبرة ودراية بذلك ، كيف لا ؛ وهي في زوج النبي - صلى
الله عليه وسلم - ، والمطلعة على ما دقَّ وجلَّ من حياته وهديه .
لقد قارنت بين طريقة النبي -صلى الله عليه وسلم- في تبليغ الناس وتعليمهم ؛
وبين طريقة أبي هريرة وبعض حَمَلَةِ السنة فوجدت أنه - صلى الله عليه وسلم -
كان يحرص على الإفهام لا على ، حشد المعلومات ، ويهتم بالكيف لا بالكم ،
فحسب الناس جملة قصيرة ذات معنى جامع يفهمونها ويطبّقونها ويكون فيها الغناء
عن سرد كلام طويل لا يُفرغ من آخره حتى ينسى أوله .
وكان هذا دأبه - صلى الله عليه وسلم - في شتى أموره سواء كان تبليغ القرآن
، أو حديثه للناس ، وإن المتتبع لسيرته في ذلك يرى عجباً .
يرى درايته وعمق معرفته بنفوس المخاطبين ، ومعرفته لمقتضى الحال التي ينطلق
منها في وصل الناس به ، وربما سأله سائل فيكتفي برده بكلمات قصار وربما سئل
عن أمر فتلطف بالرد غاية اللطف بأن جعل الجواب في ثنايا موعظة مؤثرة .
وربما صرف ذهن السائل إلى قضية أو قضايا أكثر أهمية من القضية المسؤول عنها
، وربما أجاب السائل بسؤال جوابه معروف مستقر في البديهة في صنوف من
الأساليب الحكيمة التي تستهدف غرس الحقيقة في نفوس المخاطبين من أقرب طريق
وبقائها حية فاعلة بين حارسين من يقظة العقل وصحوة الوجدان .
ولئن غابت هذه الحقيقة عن بعض الصحابة - كأبي هريرة - وهذا لا ينقص من أجر
هذا الصحابي الجليل ولا من قدره - فلقد وعاهها آخرون منهم - رضي الله عنهم جميعاً
- مثل عائشة- في هذا الحديث - وابن مسعود .
فعن أبي وائل شقيق بن سلمة قال : كان ابن مسعود ، -رضي الله عنه- يذكرنا في
كل خميس مرة ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، لوددت أنك ذكّرتنا اليوم ،
فقال : أما إنه يمنعي من ذلك وأني أكره أن أمْلِككم ، وإني أتحوّلُكم بالموعظة كما

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتخوّلنا بها مخافة السامة علينا . (متفق عليه).

وفي تبليغه القرآن كان - صلى الله عليه وسلم - يحرص على أن يعلم أصحابه الآيات ذوات العدد ولم يكن يجاوز ذلك إلا بعد أن يطمئن إلى حفظهم لها ، والعمل بها .

ولقد غفل كثير من الدعاة المسلمين في العصور المتعاقبة عن هذه الحقيقة وجاوز بعضهم حد الشطط في الحرص على الإطالة والإسهاب - من غير طائل - سواء كان ذلك خطابة ، أو كتابة.

فكم من خطيب نراه يهوي في خضم من الشرح والتفصيل والاستطراد حتى يُملّ الناس ويصرفهم عنه بتشقيقه الكلام ، حتى لتحسبه يريد أن يشرح لهم تعاليم الإسلام - التي مكث محمد ابن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثاً وعشرين سنة يبلغها للناس - كل ذلك في جلسة واحدة ، غير عابئ بطاقات الناس ، ولا مراعاة التفاوت في الفهم والاستيعاب بين من يخاطب ، لهذا لا نستغرب إذا ما وجدناه يهيم في وادٍ ، والمخاطبون في وادٍ آخر!

وكم من كاتب يسود صفحات كثيرة ، بكلام هو تحصيل حاصل ، ويبدئ ويعيد في قضايا قتلها العلماء بحثاً، ولو نُظِرَ إلى (إنتاجه العلمي الغزير!) بل إلى (إنشائه) بعين الإنصاف، لسلك في سلك (الورم الثقافي) الذي ينتاب ثقافة ما في وقت من الأوقات . لقد أصبحت قضية الإنشاء في مجال الكتابات الإسلامية مرضاً حَرِيماً بالمعالجة ، وقضية جديرة بأن تناقش على ضوء المنهج النبوي في الدعوة . ولو استعرضنا خطب النبي - صلى الله عليه وسلم - وخطب الصحابة وتابعيهم ، لا تضح لنا كم كانوا يحرصون على الإيجاز والوضوح ، وأن يكون لكلامهم معنى ولأدركنا مدى اهتمامهم بمعرفة نفوس الجماعة المخاطبة .

خطب قصيرة ، وجمل مؤثرة ، ممتلئة بالحكمة ، مكتنزة بالخبرة في النفوس والأزملة ، صادرة من قلوب مطمئنة عامرة بالإيمان ، مفعمة باليقين الذين يدفعها إلى العمل . بعيدة عن التكلف الذي ينبت في ظلال الفراغ ، ويكثر في أجواء الخمول . وهاهنا خطب طويلة مملّة ، وموضوعات مختلطة متشعبة يبدأ أحدها بأمر وينتهي بأمر ، وتحسب خطبة دخلت في شيء فإذا هي تخرج إلى اللا شيء . هم أصحابها الحرص على التباهي وتزجية الوقت ، وقد يسأل صاحبها الناس: كيف وجدتم الخطبة، لا : كيف تأثرتم بما سمعتم، وصراخ في وقت يقتضي السكينة ، وجعجة والناس نيام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !!.

ترى ما الذي دفع بخطباء اليوم إلى انتهاج ذلك السمّ المخالف لما كانت عليه خطابة الأمس؟ هل هو الفراغ الثقافي الذي يعاني منه مسلمو اليوم؟ ؛ أم هي الرغبة التي تعترى من قل علمه حين يعتلي منبر الخطابة فإذا هو يحسب نفسه كقائد قد

امتطى صهوة جواده وراح يضرب في الأعداء يمناً ويسرة وهو يزجر ويصيح بما تفرع منه النفوس.. ولا تحصل معنى من وراءه العقول!؟ أم هي مجرد محبة الكلام التي أولعت بها القلوب منذ عصر انحطاط العالم الإسلامي، وإحلاله للشكل محل الموضوع، وتقديمه للنظري مقابل العملي، وما يستتبع ذلك من تفضيل الإطالة على الإيجاز والتكرار على التجديد .

إن دلالات تلك الظواهر على ما يسود المجتمع الإسلامي اليوم من تأخر في كافة نواحي الحياة هي دلالات مؤكدة تحتاج إلى من يقف عندها متحصلاً دارساً... ثم مداوياً . وهي تحتاج إلى عقل واع قد فقه الكتاب والسنة ، وتعمق في دراسة النفس الإنسانية ودوافعها ، وإلى عين تدربت على تمييز الباطل وإن حاط نفسه بالكثير من الصواب ، وإلى نفس قد احتسبها صاحبها لله فباشر العلاج بشجاعة وهمة تلك هي نفس الداعية..

ما أحوج المسلمين - وأخص الدعاة منهم - إلى ترك الفضول من القول والعمل ، وتوفير الجهد والوقت ، والانصراف إلى النافع من ذلك ، والتأسي بهدي النبوة ، ودراسة الواقع الذي يتحركون فيه ، والناس الذين يخاطبون ، حتى يقع كلامهم الموقع المرتجى ، وتثمر جهودهم الثمر المرتقب ، وعلى الله قصد السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

خواطر في الدعوة هذه الشريعة عربية

أبو أنس

((إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ))

معاذ الله أن نكتب من زاوية قومية ، أو نتحدث بلوثة قومية ، ولكن الحقيقة التي قد تغيب عن بعض الأذهان هي أن هذا الدين لا يفهم حق الفهم ، ولا تستوعب مراميه القريبة والبعيدة ، ولا يحاط بقواعده الكلية وتفصيلاته الجزئية إلا عن طريق اللغة العربية فيها نزل القرآن الكريم ، وبها بلغ البشير النذير محمد صلى الله عليه وسلم- وبها كتبت أصول الإسلام في العقيدة والفقه والحديث والتفسير... وهي من الاتساع والشمول والدقة بحيث استوعبت مضامين الشريعة كلها ، وتستطيع استيعاب العلوم النافعة في أي عصر ، وهي من أنقى اللغات عن الدخيل والهجين وأفضلها تعبيراً عما يستكن في الضمير والشعور ولا سبيل إلى فهم هذا الدين من غير هذه الجهة ، لأن اللغة العربية وإن اشتركت مع اللغات الأخرى في أمور عامة إلا أن لها أوضاعاً تختص بها ، ليس هنا المجال لتفصيلها ولأنه مهما كانت

الترجمة إلى اللغات الأخرى صحيحة ودقيقة فلن تفي بالغرض ولن تؤدي المطلوب ، هذا إذا كانت هذه اللغات فيها من الحيوية ما يساعدها على استيعاب كثير من الأمور ، فكيف إذا ترجم إلى لغات محلية ضيقة هي مزيج من لغات شتى ليس بينها أي ترابط .

والذي يرى في هذه الأيام ما تؤدي إليه الترجمة من أخطاء وأخطار في فكر الذين يسلمون من أهل الغرب أو الشرق تتضح له صورة الماضي عندما دخل الأعاجم في الإسلام ولكنهم لم يتقنوا العربية أو بقيت هي لغة العلم والثقافة وتمسكوا بلغاتهم المحلية ، ثم انتقل بهم الأمر فرجعوا إلى لغاتهم السابقة ونسوا العربية ، وجاءت نغمة الشعوبية القومية ، وبدأ التفاخر بالفردوسى والشيرازي الذين كتبوا الشعر بالفارسية .

بل نستطيع القول : إنه لا يكفي في فهم الإسلام تعلم العربية في كتب النحو بل لابد من معرفة معهود العرب يوم أنزل القرآن من هذا اللفظ أو من ذاك حتى لا نحمل اللفظ أكثر مما يحتمل ، فإذا كانت الكلمات لا تزال هي هي في تركيبها إلا أن بعضاً منها تغير مضمونها بسبب البعد عن الفصاحة ، ولذلك فإن كثيراً من الانحرافات في فهم الإسلام إنما جاءت من العجمة ، والذي يتتبع تاريخ التفريق سيرى مصداق ذلك .

نقول هذا ونحن نعلم الصعوبات التي تعترض انتشار العربية بين صفوف المسلمين من غير العرب ولكن أليس حرياً بالدعاة ، وطلبة العلم والعلماء منهم أن يتكلموا بالعربية ويقرؤوا تراثهم بالعربية؟ وهم يعلمون أن اعتياد التكلم بغير العربية في قطر من الأقطار أو بلد من البلدان أمر كرهه العلماء ، ذلك لأن العربية هي شعار الإسلام ولغة القرآن وتعلمها من الدين ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

تمت بحمد الله